



عَبْقَرِيَّاتُ عَبَّاسٍ

عباس محمود العقاد





عنوان الكتاب: عبقرية عمر

اسم المؤلف: عباس محمود العقاد

تاريخ النشر: يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع: ٢٣٨٩ / ١٩٩٤ .

الترقيم الدولي: 7- 0180 - 14 - 977 I . S . B . N

تصميم الغلاف: م. محمد العتر

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة

مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ١١ .

فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ١١ .

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٢ .

فاكس: ٥٩٠٢٣٩٥ / ٢ .

ص.ب: ٩٦ الفجالة

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٢ .

فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٢ .

ص.ب: ٢٠ أمياية

مقدمة

تم تأليف هذا الكتاب فى أحوال عجيبة هى أحوال بأس وخطر . فلا غرابة بينهما وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه ، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر فى آن .

فما شرعت فى تحضيره وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة إلى السودان . فوصلت إليه وليس من مراجع الكتاب إلا قليل ، وكانت الصفحات الأولى التى كتبها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها ، فأعدت كتابتها فى الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها ، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود ، فلا أذكر أننى طلبت كتاباً فى المساء إلا كان عندى فى بكرة الصباح .

وإنى لأتوفر على كتابته وأحسبني منتهياً منه فى السودان إذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة ، فعدت إليها بالطائرة أتمس العلاج السريع ، لأن يدى أوشكتنا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل «الخریف» .

فعدت وما يشغلنى عن إتمامه شاغل فى السفر والمقام ، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأننى ألفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابى عن «ابن الرومى» بين السجن ونذره ومقدماته ، وألفت كتابى عن «سعد زغلول» وأنا غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من أثر الكتب عندى وأكبرها فى الموضوع وفى عدد الصفحات .

إنما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشئ فى موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عدته من مهيئات جوه ، ولا سيما حين ألفتى أدرس آثار الحركة المهدية وأتقلب بين مشاهدها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة فى مواقع فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليف من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل .

ولكن الحرج كل الحرج في التأليف إنما كان في محاسبة عمر بن الخطاب ، أو ليس الحرج في الحساب أيضاً من العمريات الماثورات ؟!

فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يجذبوا وينقدوا أن يقرنوا بين الثناء واللام ، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر ليتقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز ، وهم أقل إذن من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدمون ، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للام .

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير العدل ليغنى سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغضوب ويجوز على تابع جسور .. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف .

قلت لنفسى : إن كنت قد أفدت شيئاً من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يجرئك أن تزكى عملاً له كلما رأيته أهلاً للتزكية ، وإن زعم زاعم أنها المغالاة ، وأنه فرط الإعجاب .

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب .

فالحق أننى ماعرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها ، ولو أخطأه الصواب .

وإن أعسر شئ أن تحاسب رجلاً كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو فى محاسبة نفسه ، وأحب الناس إليه .

ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره ، وقل أن يتيج لأحد أن يكسب دعوى الإنصاف على حسابه ، إلا أن يكسبها أيضاً على حساب الحق والنقد الأمين .

فاذا عرفت منحاه من الخلق والى ، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره ، فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوى ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء .

وذاك أخرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم ، وتلك حيلة معه إن لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر ونهج عمر فشغله عبث ذاهب فى الهواء .

وعلم الله لو وجدت شططا في أعماله الكبار لكان أحب شيء إلى أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الأثر وأرضى الحقيقة ، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه في مقدورى : إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخدة ، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب في الحكم له أو عليه يلتقيان .

وكتانى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره ودلالة على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحدث التاريخى جل أو دق إلا من حيث أفاد فى هذه الدراسة ، ولا يمنعنى صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، إن كان أوفى تعريفا بعمر وأصدق دلالة عليه .

وعمر يعد رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه^(١) ، لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الماتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان . فإذا فهمنا عظيما واحدا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلا كان غاية فى البأس وغاية فى العدل وغاية فى الرحمة .. وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميثوس الشفاء .

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه فى كتاب .

عباس محمود العقاد

(١) يعنى سنة ١٩٤٢ والحرب العالمية مشتعلة بين النازية والشيوعية وبين الديمقراطية .

عبرى

« ... لم أر عبقرىا يفرى فرية ^(١) .. »

كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر رضى الله عنه ، وهى كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء ، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال .

فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته ^(٢) ومتى ينبغى التريث فى أمره إلى حين .

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب .

فأين - لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب - كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزجر بكبار الأسماء ؟

إنه الآن اسم يقتزن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليفاً أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى آلہ الأقرين أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر . لأنهم عظموا أو لم يعظموا ، يعطون البيئة كفاء ماتطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم ماذكرون به فى بيتهم ، ولكنها لا تطلب منهم ماذكرون به فى أقطار العالم البعيد .

وقد كان عمر قوى النفس بالغاً فى القوة النفسية ، ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والافتحام ، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع فى الجاه

(١) فرى المجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أقى بالعجب . والمعنى أن عمر عبقرى منمر فى عمله فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .

(٢) اسم من ندبه للأمر أى دعاه .

والسلطان بغير دافع يحفره إليه وهو كاره . لأنه كان مفطورا على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة في الجاهلية فينبى لدفعه ويلى في ذلك بلاء يتسامع به العرب في جيله وبعد جيله ، ولكنه لا يعدو ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يعن في بلائه حتى يعدوه .

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه .

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها . فإنه كان في الجاهلية كما قال «صاحب خمر يشربها ويحبها» وهي موبقة^(١) لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها ، ويكفهم عن الإفراط في معاطاتها .

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها . بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية .

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يعز به الإسلام ، إلى اللحظة التى ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو - عليه السلام - فى مرض الوفاة .

سبر غوره واستكنه عظمته ، وعرفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه .

ولست هى مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين .. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع فيه ، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها ، والوقت الذى يحين فيه أوانه .

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيسا يوصى لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا نقول إنه يفاضل بين النصيرين أو أنه يرجح أحدهما على الآخر فى ميزان الكفاءة . وإنما يختار كلا منهما لموضعه فى الوقت الذى يحتاج إليه ، ولاغضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار .

(١) موبقة : مهلكة .

فالنبي عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال : (إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : «من تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك ياعمر مثل نوح قال : «رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً» ومثلك كمثله موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» .

كان النبي عليه السلام يعلم - كما قال - أن عمر أشد المسلمين في الله ، ويعلم أن في أبي بكر لنا وهادة . فجمع للإسلام المزييتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمن هذا الاختيار معنى من معاني الاستخلاف .. أو كما جاء في بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبي بكر بالقول الصريح .

فتعزيز الإسلام بعد نبهه كان في حاجة إلى كثير من الهوادة والمجازة . وكان كذلك في حاجة إلى كثير من الشدة والصرامة . ولن تذهب شدة عمر إذا احتاج إليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع . إنما الخوف أن يذهب لين أبي بكر إذا اشتد عمر ، ولاخوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فإن الموقف إذا استنفد حجاج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده^(١)

وكان النبي عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو «المسؤولية» خليف أن يبدل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات ، فيجئ اللين إلى الشدة ويجئ الشدة إلى اللين . لأننا إذا قلنا أن رئيساً أصبح يشعر بالمسؤولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه ، ولا يقنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول .

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفى الصاحبين من حرب الردة . فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة أبا بكر الرقيق قد آثر القتال وأصر عليه . وكان عمر يقول :

(١) اللدد : شدة الحصومة .

«إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمدّه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم» ثم يقول للخليفة : «الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب» .

وكان أبو بكر يقول متسائلا : أأنّ كثير أعدائكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعد الصديق ، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .. (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) . والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين !

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها ، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأى الآخر حتى وضحت المناهج واستقر العزم والتقى صاحبان عليه ، فكانت شدتهما في الحق شدتين .

وهب الأمر مع هذا قد اختلف في موقف الصاحبين فمال أبو بكر إلى السلم والمسامحة ، فأين كانت شدة عمر ذاهبة عنه في هذه الحال ؟ أغلب الظن أنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن ييسط وجه الشدة في معاملة المرتدين . لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره ، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين .

إن محمدا عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته . فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية في ذلك الموضع . ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما في احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول .

ولا يحسبن حساب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصودا في النيات قبل ذلك . فإن الذى يحسب هذا الحساب يخطئ تلك الخطأة الشائعة التى لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطئ في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هي من البدع في زمن كان . لأن العظمة لم تكن قط وفقا على العصر الحديث ، ولا سيما العظمة التى ترجع إلى الفطرة القويمة والبدية النافذة والنظر السديد .

فكل هذا التقدير الذى أجمعنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير ، وكان مفهوماً على

البداهة بين ولاة الأمر في تلك الآونة ، ملحوظاً بينهم في مناجاة النيات قبل أن نلاحظه نحن في عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ .

وإلى ذلك أشار عمر في قول صريح حين قال لمن هابوه وتحذثوا بخوف الناس منه : «بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا : قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه . فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق ، فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي . فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه أخلط شدتي بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدن أو يدعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضة الله عز وجل وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت^(١) ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين : فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعض لبعض ...»

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعد موت النبي والحال على أشده في يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلي الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير !

ففي تلك المحنة التي تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودي زلة الساعة فيها بالكثير الذي لا تستدركه الأعوام ، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبي بكر ويهين الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة ، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم : «وكنيت أداري منه بعض الحد - أي الحدة - فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر : على رسلك ! فكرهت أن أغضبه . فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر»
عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبي بكر ، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام ، فيطيع !

(١) أضعف : رادت أصنافاً .

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهذه مواقف يعرفها صاحبها ، وهذه مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز ، وسوابق النظر البعيد .

ماوضع أبو بكر خيراً من موضعه وهو على الإسلام والخطر من داخل أهله ، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ماكان إلى الإحجام عنها سبيل . وماوضع عمر خيراً من موضعه وهو على الإسلام والخطر عليه من أعدائه المحدثين به ، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل^(١) عن صراع . وكأنما توقع النبى أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج إليه وتكفى لإنجاز عمله . وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور فلا يفوت الإسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده ، نقول هذا على الترجيح ومن حققنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبى فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : «رأيت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قلب^(٢) فجاء أبو بكر فزعه ذنوباً^(٣) أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً^(٤) فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن^(٥) » .

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزاع هو قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى يفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل ، ويؤتى لها من السبق مالا يؤتى لغير العبقرين .

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب ... أتراها على كلا المعنيين شيئاً غير التفرد والسبق والابتكار ؟ كلا . مالمالعبقرية مدلولاً يخرج عن صفة من هذه الصفات . ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخاً «لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا» حتى ينتهى بسرد هذه «الأوليات» إلى عداد العشرات . وتلك هى عبقرية التى لا يفري فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به ، صلوات الله عليه .

(١) ينكل : يجبن . (٢) قلب : ثمر . (٣) ذنوباً : دلوا . (٤) الغرب : الدلو العظيمة .

(٥) عطن : مرتبط الإبل حول الماء .

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقريّة إذا نظرنا إلى أعماله ، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذى جعله مستعداً لتلك الأعمال مضطرباً بتلك القدرة ، وإن لم يكن من اللازم اللابز أن تقترن القدرة بالعمل الذى تستطيعه ، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل .

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازاً بعمله ، ممتازاً بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقريّة بالفراصة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجلاً ممتازاً أو رجلاً نسيج وحده^(١) .

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقريّة بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجلاً ممتازاً ، أو رجلاً موهوباً .

كانت نظرة إليه - قبل السماع بعمل من أعماله - توقع فى الروح^(٢) أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد^(٣) ، وأنه جدير بالهبة والإعظام ، خليف أن يحسب له كل حساب .

كان مهيباً رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه ، وأولها جبهة عمر .

أذن النبى يوماً لجارية سوداء ، أن تفى بنذرهما «لتضربن بدفها فرحاً أن رده الله سالماً» فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه .

ودخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، والصحابه مجتمعون . فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجهت الجارية وأسرعَت إلى دفها تخفيه ، والنبى عليه السلام يقول : «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!» .

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة^(٤) ودعت

(١) نسيج وحده : لا نظير له . (٢) الروح : العقل أو القلب . (٣) سواد الناس : عوامهم .

(٤) الحريرة هنا : دقيق يطبخ بلبس فيكون حساء .

سودة أن تأكل منها فأبت ، فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها ، فلم تأكل ، فوضعت يدها في الحريرة ولطختها بها . وضحك النبي عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطخى أنت وجهها . ففعلت .

ومر عمر فناداه النبي : يا عبد الله ! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما : قوما فاغسلا وجهكما !

قالت السيدة عائشة : فمازلت أهاب عمر لهية رسول الله ﷺ إياه .

ومن تلك الهية أنها كانت رضى الله عنها تحفظ في زيارة قبره بعد موته ، وحكت ذلك فقالت : «مازلت أضع خمارى وأتفضل^(١) في ثيابى وأقول : إنما زوجى وأنى ، حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة في ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت بعد» .

وإن من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهية رضى عنها واغتباطا بأثرها في نصره الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة أهل البغى والبهتان . وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلون . وتلك علامة على أن هيئته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار . فرجما اجتراً عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخلاء وقلة اكترائه للمظهر والثياب . أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تذهبها الألفة وطول المعاشرة ، ومن ذاك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت ، فلم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط !

وتنحى عمر والحجام يقص له شعره فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه ، فأمر له بأربعين درهما .

فهى هية من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد . إلا أنه مع هذا كان في منظر الجسد رائعا يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه .

كان طويلا بائن الطول يرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

(١) الفضل : لبس الفضال وهو الثوب يلبس في البيت للخدمة أو النوم .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الإنسان ، وللمحدثين علامات في العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال .

فالعالم الإيطالى «لومبروزو» ومدرسته التى تأتم برأيه ينرون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من العبور فى أحد من أهلها .. وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

فيكون العبرى طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بين القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبريين من كل طراز جيشان اشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ ، فيكون فيهم من تفرط سورتة^(١) كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكاة^(٢) والفراسة ، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله .

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقة فى حالات ، مقاربة فى حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للبعد التام ، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها . ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور .

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير .

كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسر^(٣) يسرا يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال :

كيف تجدون عمر ؟ فقال : خير الناس ، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم .

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان .

(١) سورة السلطان : سوطه واعتداؤه . (٢) الزكاة والفراسة : أن يطس الشخص ميصيب .

(٣) الأعسر اليسر : الذى يعمل بكلتا يديه .

ومن فرط حسه وتوفر شعوره أنه كان يميز بين بعض المدوقات والمشمومات التي لا يسهل التميز بينها . سقاه غلامه ذات يوم لبنا فأنكره ، فسأله : ويحك ! من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله .

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعاً أصحاب إبل وألبان ، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلاً يدعون أنهم يفرقون بين لبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة ، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب .

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه» .. وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لاشك فيها ، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك أنه كان جالساً فمر به رجل جميل فقال مامعناه : أحسبه كان كاهنهم في الجاهلية ... فكان كذلك .

ومنه أنه أبصر أعرابياً نازلاً من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعراً لو شاء لأسمعكم . ثم سأل الأعرابي : من أين أقبلت ؟ فقال : من أعلى الجبل فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال : أودعته ودیعة لی . قال : وما ودیعتك ؟ قال : بنی لی هلك فدفعته قال : فأسمعنا مرثيتك فيه . فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تفوهت بذلك وإنما حدثت به نفسي ، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له في حكمه كان ذا وفي قدره
قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد في عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته ، ثم قال : صدقت يا أعرابي .

وكان عمير بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان : والله ما إن في العيش بعدهم خير . فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دين على ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد حتى أقتله .

فقال صفوان يحرضه : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، ولا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرَّ إليه بعزمه على الغدر بالنبي وشحذ سيفه وسمه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة .

فما نظر إليه متوشحاً بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، ماجاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا وحزرننا^(١) للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبي فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبسه^(٢) بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله يا عمر ! ادن يا عمير ؟

وجعل رسول الله يسأل عميراً وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسرّه ، وأعلن الإسلام والتوبة .

هذه الفراسة وشبهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب . وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقريّة فى حاشية من حواشيه .. إذ ماهى العبقريّة فى لبائها كائناً ما كان عمل المتصف بها ؟ ماهى الحكمة العبقريّة ؟ ماهو الفن العبقري ؟ ماهو دهاء السياسة فى الدهاء العبقريين ؟ من هو : الألعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعاً ؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الأبواب .. فاتصالها بالفراسة وشبهاتها أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه .

والذى يعنينا من الفراسة وشبهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار ، وهى التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو «التلبأى» كما يسميه النفسانيون المعاصرون . ولكل أولئك شواهد شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة .

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما سمك ؟ قال قريب . وسأله مرة أخرى : ابن من ؟ فقال ابن ظفر ! فتفأل وقال : ظفر قريب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

(١) حزر الشيء : قدره بالتخمين .

(٢) لبسه : جمع ثيابه عتد نحره ثم حره .

وروى يحيى بن معيد أن عمر سأل رجلاً : ما اسمك ؟ قال : جرة ! فسأله : ابن من ؟ قال : ابن شهاب . فسأله : ممن ؟ قال من الحرقه ، وعاد سأله : ثم ممن ؟ قال : من بنى ضرام ، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتا حتى استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا . وقد يكون التأليف ظاهراً في هذه القصة ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهاى عمر باستكنائه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الإنذار .

أما الرؤيا فأخر ماروى عنه من أخبارها أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال : يسوق الله إالى الشهادة ويقتلنى أعجمى ، فإن الديك فى الرؤيا يفسر برجل من المعجم .

على أن المكاشفة أو الرؤيا Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً فى قصة سارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباى Telepathy أو الشعور البعيد .

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى : ياسارية ابن حصن ! الجبل .. الجبل !.. ومن استرعى الذئب ظلم .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته فسأله على رضى الله عنه : ما هذا الذى ناديت به ؟ قال : أو سمعته ؟ قال : نعم .. أنا وكل من فى المسجد .

فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يملون بجبل . فإن عدلوا إالى قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وإن جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : ياسارية بن حصن ! الجبل الجبل . فعدلنا إالى ففتح الله علينا .

ولاداعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا إالى العقل أو إالى العلم أو إالى التجربة الشائعة . فإن العقل لا يمنعها . والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها ، بل منهم من مارسوا «التلباى» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهورا بين معاصريه

بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراصة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهي الهبات التى يلحقها بالعقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها .

فهو رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين .

أو هو رجل ممتاز ، وعبقري موهوب فى جميع الآراء .

صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال . رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد .

أنقول رجل قوى ؟ نعم هو رجل قوى لا مراء . وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة . نعلم هذا فنعلم الشئ المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئاً مهماً عن صفاته وأخلاقه . لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة وإلى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب والعيوب ، وأخرى بنا أن نقول إن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه . فهى حالة تدل عليها المناقب والعيوب أو تدل عليها الصفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد إلى صفاته وأخلاقه .

فإذا قلت إن عمر بن الخطاب رجل قوى فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقرى أو إنه رجل عظيم .

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه غمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين . وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته ، وإن ساواه فى القدر أنداد وقرناء .

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد . تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره ، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه^(١) .

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة ؟ كلا . ولا تقدمنا بعيداً فى طريق حلها ، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التى نبحت عنها ، فلا بد إذا من البحث ولا بد من المعرفة . فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعته أنه لا يناقض الظاهر المكشوف . ولكن لا بد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذاك .

(١) سيماه : علامته ، والمراد ما اشتهر به .

لاتناقض في خلائق عمر بن الخطاب . ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهماً من المتناقضين ، بل لعله أعضل فهماً منهم في كثير من الأحوال . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يتتبعه ، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه .

إنما الأمر الميسور في التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب . فما من قارئ ألم بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلاً ، وكان رحيماً ، وكان غيوراً ، وكان فطناً ، وكان وثيق الإيمان ، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية .

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكنية فيه لا تخفى على ناظر ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة ولا تتشعب في اتجاهها طرائق قديداً^(١) كما يتفق في صفات بعض العظماء. بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضاً حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان .

وأعجب من هذا في التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد . ثم هي مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر في شيء .

خذ لذلك مثلاً عدله المشهور الذي اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى . فكم رافدة^(٢) لهذا الخلق الجميل في نفس ذلك الرجل العظيم ؟

روافد شتى : بعضها من وراثته أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عبر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ، وكلها بعد ذلك تمضي في اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق .

لم يكن عمر عادلاً لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلاً لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه بيوت بني عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلاً بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب ، وجده نقيلاً بن عبد العزى هو الذي قضى لعبد المطلب

(١) طرائق قدد : فرق محتملة . (٢) رافدة : الرائد ما يمد بالماء من قاة أو نهر .

على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشئ في مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلاً لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه ، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث . إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس ، وكانت أمه حنمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش في كل نضال . فهو على خليقة الذي لا يحاى لأنه لا يخاف ، والذي يخجل من الميل إلى القوى لأنه جبن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزرى بنخوته وشممه .

وكان عادلاً لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة ^(١) الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلّة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبّه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه ، وساعدت عبر الأيام على تمكين خليقة العدل في خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب .

وكان عادلاً بتعليم الدين الذي استمسك به وهو من أهله بمقدار محاربه وهو عدوه . فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين .

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعبر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التي أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات .

كان عادلاً لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلّة التناقض فيه . وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذي حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها . لأنه منحها القوة التي تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تنفك ولا تتوزع ، فكان عمر في جميع أحكامه عادلاً على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها . فلو تفرقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير .

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها وإن سلمت منه بطبيعتها . لأنها تدخل في صفات البطولة التي تثير الإعجاب

(١) لعقة الدم : سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا حزوراً فلعقوا دمه أو غسوا أيديهم فيه

والمبالغة ، وكل بطولة فهي عرضة للمبالغات والإضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل .

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة وفيها دواعي الإغراء بالإعجاب والمبالغة . ومن ؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يهتمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التي تأباه .

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود . وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه .

فإذا سوى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل ماثور يقتدى به الحاكمون . ولقد سوى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة في هذه الصفة النادرة بين الحكم .

وذلك كاف في تعظيم قدره ، لا حاجة بعده إلى مزيد .

إلا أنها صفة من صفات البطولة التي تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة في التحدث بها والإطناج في أحاديثها . فهي لا تكفي البالغين حتى يجعلوا عمر مقيما للحد على ابنه ، مشددا في عقوبته اشتدادا لا يسوى فيه بينه وبين غيره . ثم لا يكفي البالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضى عمر في جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من البالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذي ثقل عليه ، وعجز عن احتماله .

نعني بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر في مصر وهي كما رواها عمرو بن العاص وإلى مصر يومئذ حيث يقول : «..دخلا - عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة - وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فإننا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا . فزبرتهما^(١) وطردتهما ، فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه . فحضرني رأى وعلمت أنى إن لم أقم عليهما الحد غضب على عمر في ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على مانحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر ، فقممت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه في صدر مجلسى فأبى على وقال : أبى نهانى أن أدخل

(١) زبرتهما : زجرتهما وهرتهما .

عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدءاً . إن أخى لا يخلق على رؤوس الناس . فأما الضرب فاصنع ما بدا لك» .

قال عمرو بن العاص : «وكانوا يخلقون مع الحد ، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فخلق رأسه ورأس أوى سروعة ، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحينت كتابه إذا هو نظم فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى العاصي ابن العاص .

عجبت لك يا بن العاص ولجأتك على وخلاف عهدي .. فما أراى إلا عازلك فمسيء عزلك تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه . فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عبادة على قتب^(١) حتى يعرف سوء ما صنع» .

قال : «فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه وأخبره أنى ضربته فى صحن دارى على الذمى والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر .

قال أسلم : «فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه ، وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من مركبه . فقال : يا عبد الرحمن فعلت كذا ؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة . فلم يلتفت إلى هذا عمر وزبره . فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى : فضربه وجبسه ، ثم مرض فمات رحمه الله» .

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم ، فلا نستغربها فى جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية ، فيقيم عليه الحد وهو ميت ، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم .

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه ، ومضينا فى تمحيصه فطابق التمهيص

(١) القتب . الرجل الصغير على قدر سنام البعير .

ماقدرناه . أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع .. إلا أن يكون الملفق من حذاق الرواة ومهرة الوضع . ولو كان المصدر واحداً معروفاً بالحدق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالى لأنه شرب شيئاً ظنه غير مسكر فإذا هو قد سكر منه ، ولا مناص من إقامة الحد عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه .. وهى شنشنة^(١) عمرية لا لبس فيها ، وهو ابن عمر لا مرء .

والوالى . ومن الوالى ؟ عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا يبعد حسابه ، فهو يترىث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه .. وهى أيضاً شنشنة لا غرابة فيها . فمن يدرى ؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخاً للخليفة أو مدبراً للسلطان معه فى يوم غير بعيد ؟

والخليفة يدرى بالأمر فيحوله ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل إليه نبؤه من قبله ، وهو ماهو فى ترجمه من تبعة يحملها غافلاً عنها ، لحرص الولاة على تحرى هواه ، وابتغاء رضاه . فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحد الذى شرعه الدين وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين

كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه .

أما الغريب من عمر حقاً فى معدلته وعلمه بالدين وكراهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت ، أو يشتد فى إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام .

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا انتقاء تبعة .

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى إقامة الحدود خاصة وفى مثل هذه العقوبة بعينها .

فقد جىء له يوماً بشارب سكران ، وأراد أن يشتد عليه فقال له : لأبعثك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة فبعث به إلى مطيع الأسود العبدى ليقم عليه الحد فى غده .

(١) الشنشنة : الخلق والطبيعة .

ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً فصاح به : قتل الرجل . كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : أقص ^(١) عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات .

وقد كان من دأبه أن يترث في إقامة الحدود ، حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات .

ومرّ يقوم يتبعون رجلاً قد أخذ في رية فقال : « لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في الشر » .

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوه في تقاضى الحدود على المعاصى كما فعل في إنذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شارباً وحلق شعره وسود وجهه ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب إلى أبى موسى : « لئن عدت لأسودن وجهك أو لأطوفن بك في الناس » وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهل ليتوب ويقبل شهادته إن تاب .

وتفقد رجلاً يعرفه فقيل له إنه يتابع الشراب . فكتب إليه : « إني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو »

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢)

فلم يزل الرجل يرددّها ويكي حتى صحت توبته وأحسن النزاع ^(٣) ، وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه : « هكذا فاصنعوا . إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسددوه ووقفوا وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه » .

وقد تكرر منه إعفاء الوانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر في غير ذلك من الحدود .

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد ، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حداً وله مندوحة عنه .

(١) أقص : حذ له بقصاصه - أى أقم القصاص عليه بمحذف عشرين . ولعل الأصل أقص عنه عشرين أى أنقص عنه عشرين ، وريادة الباء من تحريف الرواة .

(٢) آية ٣ من سورة غافر . (٣) أحسن النزاع : كف عما كان فيه وانتهى

وفي قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تخرجه وتحريره . ثم لاحاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف في القسوة عليه ، ليقال إنه سوى بينه وبين غيره .

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة في عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجمل بمثله . فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته : إن أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكرنا فلما أصبحنا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فإننا قد سكرنا من شراب شربناه !.. ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، فقلت : والله لا يخلق اليوم على رؤوس الأشهاد . ادخل أحلقك !.. وكانوا إذ ذاك يخلقون مع الحد ، فدخل معي الدار فحلقني أخي بيدي ، ثم جلدهما عمرو بن العاص ، فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إلى بعبد الرحمن بن عمرو على قتب .. ففعل ذلك عمرو . فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه . ثم أرسله فلبث شهرا صحيحا ثم صحيحا ثم أصابه قدره ، فتحسب (١) عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه .

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر مبالغة في عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة ، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة .

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذي يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح في محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة ولا سيما الزيادة التي لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء . وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصلية فيه .

نعم كانت الرحمة من صفاته التي وازنت فيه العدل أحسن موازنة .. فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضبه من الأقوياء المعتدين ، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه .

ولا يمنع ذلك أنه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافاً في القول إذا استغضب واستثير ، فليست الخشونة نقيضاً للرحمة ، وليست النعومة نقيضاً للقسوة . وليس الذين لا يستشارون ولا يستغضبون بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على

(١) تحسب : ظن .

العنف والبغضاء ، ويكون الرجل خشناً وهو أعطف خلق الله على الضعفاء ، بل كثيراً ما تكون الخشونة الظاهرة نقاباً يستتر به الرجل القوى فراراً من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة . فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذراً من ظهورها .

ومن المألوف فى الطبائع أن الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما إذا كان الواجب عنده شيئاً عظيماً يزيل كل عقبة ويبتل كل حجة ، ويقطع كل ذريعة . فهو إنما يعتصم بالواجب فى هذه الحالة كما يعتصم الإنسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقتحم عليه طريقه ، ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة إلى ذلك الحصن المنيع ، ولا سيما حين يكون حصناً بالغاً فى المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب .

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسياً قط إلا باسم واجب أو فى سبيل واجب ؟ كلا وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته إلا لحنا الواجب قائماً إلى جانبها يزكها ويسوغها . ومن كانت القسوة طبعاً فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة ، بل هو فى حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها .

وليس قصاره فى هذا الخلق أنه غير قاس أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقتة واتخذت سبيلها إليه ، فإذا نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جداً من ذاك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائل الأصيلية فيه لاتكاد تفارقه فى عامة حياته ، حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله وأن يقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم .

وفى صدد الكلام عن الخليفة الإسلامى الكبير قد يهمننا خلق الرحمة فيه خاصة ، لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل .

فمن المحقق أن رفته للمسلمين وللدین الذى يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما فى حالة من الشكوى تلين القلب وتكف انعرب^(١) وتمسح جفوه انعداد والبعضاء .

قالت أم عبد الله بنت حنتمة : لما كنا نرحل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى

(١) تكف الغرب :- تخفف الحدة أى تلين الشديد القاسى .

وقف على ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لى : إنه الانطلاق يا أم عبد الله : قلت : نعم . والله لنخرجن فى أرض الله .. آذيتونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صحبكم الله ، ورأيت منه رقة لم أرها قط .

وحديثه مع أخته فاطمة فى سبب إسلامه مشهور متواتر فى أوثق الروايات . فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها ، فأدركتها الثورة الخطابية التى فيها منها بعض مافيه وقالت وهى غضبى : يا عدو الله ! أتضربنى على أن أوحى الله ؟ قال غير مترث : نعم ! فقالت : ما كنت فاعلا فافعل . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لقد أسلمنا على رغم أنفك .

ويذكر لنا رواة القصة التى اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلق عن زوجها - بعد أن صرعه وقعد على صدره - ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التى كتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمة إلى حيث لقى النبى فأعلن شهادة الإسلام على يديه .

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخواجل والخطرات وهو يتحدث إلى المراتين : بنت حنتمة ، وبنت الخطاب .

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقي أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال : الإساءة تتبعها الإساءة والتحدى يعقبه التحدى ، وكلما قبل البطش بمثله تضمرت سورة الغضب واثرت نحيزة القتال ^(١) ، ومضى العدا شططا لا اعتدال فيه ولانكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوين . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور . وتتمادى الشر ^(٢) على ذلك شهورا وسنين وكأن الرحمة لم تخلق فى النفس ولم يسمع لها فى حنايا الصدور صوت .

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوى فما حاجته إلى قوته ونضاله ؟ وما أخرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها كأنها هى الخليفة الخفية التى لم تخلق وليس لها صوت مسموع ! وما أقربها إذن إلى أن تحجل من إبدائها وتندم على قسوتها وتتوب إلى البوبة والخشوع ، وهما من لباب النسي .

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة ، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدين

(١) النحيوة : الطبيعة والغريزة . (٢) الشر : الشر .

إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية ، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قريته لا تنحصر دلائلها في رحمته لأخته الشاكية الثائرة . فإن المرأة قد ترحم لضعفها في موقف شكواها ويأسها. ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعة النسب . إنما يدل على مودته لذوى قريته ذلك الحب الذى كان يضمه لأبيه بعد موته مع شدته عليه وغلظته في زجره وتأديبه . فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية .

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيدا في حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يكيه إلا ذكره له ففاضت شتونه^(١) ، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحدا فقد أخا له إلا التمس الأسوة عنده .

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال : «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح ، فلما انقفل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوسه ويده هراوة فسأله : من هذا ؟ فقبل : متمم بن نويرة . فاستنشد رثاءه لأخيه ، فأنشدته حتى بلغ إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقا كأتى ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معاً
فقال عمر : هذا والله التأبين ، يرحم الله زيد بن الخطاب ! إني لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيتك كما بكيت أخاك . ثم سأله : ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن ؟ فقال : كانت عيني هذه قد ذهبت فبكيت بالصريحة فأكثر البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع . فقال عمر :

إن هذا لحزن شديد . ما يحزن هكذا أحد على هالك . قال متمم : لو قتل أخى يوم الإمامة كما قتل أخوك ما بكيت أبداً . فصبر عمر وتعزى عن أخيه وقال : ما عزانى أحد عنه بأحسن مما عزيتنى ..»

هذا هو عمر من وراء النقاب .

فما كان أحوجه رضى الله عنه إلى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابة في ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه .

(١) الشئون : الدموع .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقربة ويخفو غيرهم من الناس ، ولكن الرحمة الأصلية في الطباع تسوى في المودة ولا تفرق ، وتخلق هي سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القربة بأسبابها . فكان عمر كما روى «الحسن» يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : ياطولها من ليلة ! فإذا صلى الغداة غدا إليه ، فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه . وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغص عليه ليله .

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى ، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهب ليحرساهم من السرقة ، ثم باتا يحرسان ويصليان ، فسمع بكاء صبي ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كرة أخرى ، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه : ويحك ! إني لأراك أم سوء مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ قالت : يا عبد الله قد أيرمتنى منذ الليلة . إني أربعه عن الفطام ^(١) فسألها : ولم ؟ فقالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم ! فسألها : وكم له ؟ فلما علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديا فنادى ألا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام .

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد .

قال أسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار ^(٢) إذا نار توثرت ^(٣) فقال : يا أسلم إني أرى ها هنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد . انطلق بنا !

«فخرجنا نهروا حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ^(٤) فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام ! فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو دع . فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ! قال : وأى شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر ! فقال : أى رحمك الله وما يدري عمر بكم ؟ فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل على فقال : انطلق بنا .

(١) أربعه عن الفطام : المقصود أني أحسه على الفطام وأعوده .

(٢) صرار : مكان على مقربة من المدينة . (٣) توثرت : توقد . (٤) يتضاغون : يتصايحون .

«فخرجنا نهول حتى أتينا دار الدقيق . فأخرج عدلا^(١) من دقيق وكبة^(٢) من شحم ، وقال : احملة على ! قلت : أنا أحملة عنك . قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة !.. لا أم لك !

«فحملته عليه ، وانطلقت معه إليها نهول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرى علىّ وأنا أحرّ لك^(٣) .

«وجعل ينفخ تحت القدر . وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم . ثم أنزلها وأفرغ الحريرة في صحفة وهو يقول لها : 'أطعمهم' وأنا أسطح لهم - أى أبرده - ولم يزل حتى شبعوا وهي تقول له : جزاك الله خيراً ، كنت بهذا الأمر أول من أمير المؤمنين ..»

وأمثال هذه القصة في سيرة عمر كثير ، لا يقال أنها هي ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة ، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتي من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتي من الشعور بالتبعة !

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه أو لم تتحرك فإن النفس التي تتحرك للأمر السماوى هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب .

على أن عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين . فمن ذلك أنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودى قال له : ما أجبك إلى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضرباه^(٤) فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب .. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم .

(١) العدل : الجوانى . (٢) كبة من شحم : مقدار منه .

(٣) أحرّ لك : أى أتخذ لك حريرة ، وهو الحساء من الدقيق والدسم .

(٤) ضرباؤه : نظراؤه وأمثاله .

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون .

بل كان يرحم كل مخلوق حى حتى البهيم الذى لا يبين بشكاية ، فروى المسيب ابن دارم أنه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل جملة مالا يطيق .

وكان يدخل يده فى عقرة البعير الأدبر^(١) ليدأويه وهو يقول : إني لخائف أن أسأل عما بك . ومن كلامه فى هذا المعنى : لو مات جدى بطف^(٢) الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر ، وإنه لشعور بالتبعة عظيم .

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كل أمير عليه تبعة ، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم .

* * *

فنحن إذاً بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة الكبيرة : الرحمة إلى جانب العدل ، وكنائهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جملة أعماله .

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة ، خلافاً للمعهود فى الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب . إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبية بهذه المثابة من التأصل والبروز ، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان ، ثم تطفى إحدى هذه الصفات على سائرهما فلا تعطىها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار .

وعلى غير هذا العهد كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها ، فكانت كل صفة منها فى قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر بغيرها وإنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعاً ، فيخيل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد فى غيره .

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك إذا قلت «العربى الغيور» فكأنما سميت عمر

(١) البعير الأدبر : المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة .

(٢) طف الفرات : ب «شاطئه» .

ابن الخطاب . لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذى لا يشبه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين .

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : «إن الله غيور يحب الغيور ، وإن عمر غيور» .

وتحدث إلى صاحبه يوما وعمر فيهم فقال : «بيننا أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر . فذكرت غيرته فوليت مدبرا .. فبكى عمر وقال كالمعتذر : أعليك أغار يا رسول الله ؟»

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطابعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره .

استأذن على النبى يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن فلما استأذن عمر قمن يتدرون الحجاب .

فدخل والنبى يضحك .

قال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله .. كأنه يسأله عن سبب ضحكك . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندى لما سمعن صوتك ابتدن الحجاب .

قال عمر : فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهين . ثم التفت إليهن يقول : أى عدوات أنفسهن ! أتهيننى ولاتهين رسول الله ﷺ ؟

قلن - ولا يخذل المرأة لسانها فى هذا المقام : نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ! . وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبى ﷺ بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى إحداهن فى الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها : عرفتك يا فلاة !

ليريها أنها فى حاجة إلى مزيد من التحجب . وقد ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له : وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى . بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطرا من غيرته على كل حرم وحوزة . فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد ، ومنها

غيرته على الزى العربى والشمائل العربية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميه غيور .

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدد فى معارض شتى كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه . فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبدا حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيالات مطبوعات يختلطن بكل ماعمل وقال .

إلا أنك تقرؤها جميعا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه .

ذلك أن عمر إكأن يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على إذى . نعمة .

فإذا قيل لك إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت غيرته ؟ وإنما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة : علام غار ؟ ولأى شىء كان يغار ؟

فهو يغار على حق ، أو يغار على عرض ، أو يغار على دين ، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة ، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك .

إنما كان يغار على شىء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة لإنسان على حظه .

رجل قوى ، جياش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن بالحق وحرماته ، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجتري عليها . فإن لم يكن هذا غيورا فمن يكون الغيور ؟

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ماتقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة ، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل .

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه بأنه محدود التفكير ، أو أنه يأخذ الأمور بمقياس واحد .

ونحن لانقول إن عمر رضى الله عنه خلق بذهن عالم بحائنة منقطع للكشف والتنقيب ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض ، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ، وأنه كان معنيا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذى يقيس الأمور بمقياس واحد .

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائص الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها في تفكيره بطابع واحد . بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الإنسان ، وراح في علمه هذا يراقب الناس مراقبة الجذور ، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد .

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير ، لأن « الذى لا يعرف الشر أخرى أن يقع فيه » وأنه كان يحب أن يعرف الأعداء كما يعرف الذنوب حيث يقول : « أعقل الناس أعذرهم للناس » ، وأنه هو القائل : « احترسوا من الناس بسوء الظن » ، وهو القائل مع ذلك : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر » .. يوفق في هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغي أن تخفى عليه خافية ، وبين عدل القاضى الذى لا ينبغي أن يحكم بغير بينة ظاهرة .

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للأمور وجوها لا تنحصر في الوجه الذى يراه ، وكثيرا ما قال : « أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه » . وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأى شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة .

وقد عاشره أناس من الدهاة فخيروه وحذروه ! .. وقال المغيرة بن شعبة لعمر ابن العاص : أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئا فيلقنه عنك ؟ والله ما رأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع .. »

إنما كان عمر كما وصف نفسه « ليس بالخب ولكن الخب^(١) لا يخدعه » . وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء الحمود والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح . فهناك فطنة تسمى الظن لأنها تعرف الشرور التى في طبائع الناس ، وفطنة تسمى الظن لأنها تشعر شعور السوء ، والفرق بينها عظيم كالفرق بين الخير والشر والحمدة والمذمة . فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفتنة الثانية خلق ردىء ، وإنما كان

(١) الخب : الخادع .

عمر بالفتنة الأولى معصوماً من أن يخدع غيره أو ينخدع لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبيه .

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات ، وهى حكايته مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى إلى عمر بمراده ويتداهى عليه .

فقد همَّ عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ويولى جبير بن مطعم مكانه ، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يدس امرأته وهى مشهورة بلبق الأخبار حتى سميت « لقاطة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره فسألها : إلى أين يخرج زوجك ؟ قالت : إلى العمرة ! قالت لقاطة الحصا : بل كتمك ، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره ! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهى كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا . وذهب المغيرة إلى عمر ففأفح به علم وهو يقول له : بارك الله لأمر المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيراً ! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بل قال : كأنى بك يامغيرة قد فعلت كيت وكيت ، كأنا سمع ورأى .. وأنشدك الله هل كان كذلك ؟ قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صعد عمر إلى المنبر ونادى فى الناس : أيها الناس ! من يدلنى على الخلط المزبل^(١) النسيج وحده ؟ فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك فى أمتك أحد غيرك ؟ .. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات .

وإنما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجاباً بحصافته لا انخداعاً بمكره ، وقد يتغاضى ويعمل ما يريد المتداهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب ، كما صنع مع عمرو بن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما .. وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال .

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمنازعات . أنه عمل لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الإنسان ، وكفى بذلك دليلاً على قدرته الذهنية

(١) رجل مخطط مزبل : يجمع بين الأشياء ، ويميز بينها لقوة فكره .

لا حاجة بعده إلى دليل . ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين ، ونصب ولاة وانتدب قوادًا وسير بعوثًا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظمًا في الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ، ونجح في كل ما عمل نجاحًا منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين ، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد . فإذا استوفى هذا الحظ الوافي من القدرة الذهنية فذلك حسبه منها وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقرة^(١) . ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة فإن الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليدس ثانيًا أو « فاراداي » سابقا في الزمن القديم ، بل أخرجه للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ . فإذا تأدى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خلق له ويبلغ القصد الذى رُمى إليه . وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده .

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائص والمفارقات .

ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل الجلى فإذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غرض مائل لاتنحرف عنه قيد شعره ، كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائص وخفايا ومن عوج وتعرج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ولا يلتفت إلى شئ فى نفاذه أو يعوقه عائق دونه .

فخطر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فطرية كالغريزة التى تهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لا تنحرف ولا تنصرف ولا تخالف ما جبلت عليه ، وأنها فطنة العقل المحدود والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب فى نواحيه . والفكر المحدود هنا هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب .

فالرجل الذى يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :
فإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله .

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم أنها تنثنى إليه حيث كان دون أن ينثنى إليها حيث كانت .

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل :
هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهى استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد ، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور .

هى استقامة حياة غلابة ، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوى بين التبر والتراب لأنها لا تميز بين التبر والتراب .

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزا عن الفهم والتزاما للحرف المكتوب ونزولا إلى مرتبة الموازين التى لاتعى ولا تغضب ولا تغار إنما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوى ، وعلما بالتبعة واضطلاعا بجرائرها فذلك حى غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لاحس فيه .

وشتان بين هذا وذاك . إنهما لنقيضان وإن كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين .

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية .

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان وإن اختلفت القيم والأقدار ، وتفصل فى الانصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال .. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود ، لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ما تدل عليه .

كان عمرو بن العاص واليا لمصر وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين سبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق . وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول : أنا ابن الأكرمين ! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع إليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الأكرمين ! ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس

إلا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضبا : بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟
فما نجا من يده إلا برضا من صاحب الشكوى واعتذار مقبول .

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام فى زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ
ومنها إنفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه . فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام كما يحاكم
أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع .

وكان جبلة بن الأيهم أميراً نصرانياً فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه ، ثم وطىء
أعرابى إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله . فقضى عمر للأعرابى أن يلطم
الأمير على ذلك الملأ ، لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير .

هذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات
تتأبى على القصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء
بالحرف المكتوب ، دون الثفات إلى الأحوال والمقتضيات .

فهل هى فى الواقع كذلك ؟ وهل كان على عمر أن « يتصرف » فى هذه الأقضية
بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول
حدود القانون ؟

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج إلى الحيلة . فإنما يعاب على
الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه ، أو لأن المساواة
تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف ، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها
شراً وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه إذا أن يدور حول الحقيقة وألا
يواجهها نصّاً بغير انحراف .

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا ؟ إنه كان قوياً قادراً على العواقب ،
وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الخجل من خذلان المظلوم ، وكان وثيق الإيمان
بنصر الله فى الحق وفى النجدة : فلماذا ينحرف ؟ ولماذا يتصرف ؟ ولماذا يدور ؟

كان قوياً بطبعه قوياً بإيمانه فلماذا يهاب قوياً جار على ضعيف ؟ ولماذا يروغ من
صرامة القاضى إلى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا

به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود الذى ينسى الفوارق ولا يمتثال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد .

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص ، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعاً لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة .

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثرون ويعلمون من هو عمر وماهى عقابهم إذا ثاروا عليه .

وأما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعيا بها إذا هى فاجأته أو جاءته على غير انتظار .

وأما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة التى لاخفاء بها ولاشك فيها - فكيف يقال إذن إن تفكير عمر فى قصاص الولاة كبارا وصغارا تفكير محدود ؟ وأين هو فى هذه الحالة موضع التفكير المحدود ؟

إنه فى موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذى يصف عمر بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر فى قياس الرجال بمقياس واحد ، أو فى اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هى ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدي الرجال .

لقد كان عمرو بن العاص خطرا على الخليفة الذى يغض منه لو كان غير عمر ، ولكنه هو - والذين كانوا أجراً منه على الفتن وأسرع منه إلى الغضب - لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذى أمر بالعزل وهو الذى قضى بالقصاص .

فأجراً منه ولأريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لو عمد إلى السيف . ومع هذا نقم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول : « إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بشية - أى حنطة - وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى » . فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له : صبراً أيها الأمير فإنها الفتنة . فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا ..

نعم ، لافتنة وابن الخطاب حى ولو كان الغاضب خالداً الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح عليه .

وأطرف من هذا فى هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب إلى أبى عبيدة يأمره أن

يقاسم خالدا ماله نصفين ، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه إحداها وأخذ الأخرى .

لقد نظرنا إلى عمر مستقيما ولم ننظر إلى الخطوب ، ولو نظرنا إليها لرأينا أنها اثنتان لتتقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على منهاجه .. فعلمنا لم استقام دون أن يقدح ذلك في صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته في خلائق الناس .

وندع قضايا الولاة وننظر في قضية الأمير الذى ارتد عن الإسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوق . فماذا كان ينبغى أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير واستبقاء أتباعه في الإسلام والاحتياط على الشاكى بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوى بين الخصمين ، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه .

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟

كلا . بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صائىء بما يضيره ، ولو كثر أتباعه والصابئون في ركابه .

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتاج إليه .
وهاهى ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظر البعيد والعدل الشديد في هذه القضية يلتقيان ، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة . فقد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جيلة وأتباعه على دينه ، ووقاه ضررا أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصائبين عنه . أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه وسمعته في الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له إن كان أضعف بأسا من أمير وجب العقاب عليه .

ويجوز أن الفاروق لم ينظر إلى عواقب القرون كما ننظر إليها الآن ، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان . غير أن الأمر الذى لا يجوز في اعتقادنا أنه عدل في قضية جيلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان . إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة .

أما الفاروق في هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بإيمانه ، وهكذا يعلم الإنسان ببطولة الإيمان .

والعبرة التي نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى في أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هي على الأغلب الأعم أحسن من الأول .

فالناقدون الأوربيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة في القدرة وليس بنقص في الفطنة ، أو أنه زيادة في قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص في العلم والبداهة ، ولم يكن عسيراً عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وترثوا في حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان في خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام . فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تخرجاً منها وتنزهاً عنها ، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان .

فلم يكن يمضى قدماً لأنه يغفل عما حوله من النواقى والمنعرجات والسدود ، بل كان يمضى بينها قدماً لأنه لا يبالىها ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنشئ له إذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينتشى إليها .

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوى الوثيق ، فله من قوته ومن إيمانه قدرتان .

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئ للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذي يعرفونه ، أو ينسى العواقب التي يذكرونها ، أو يتحلل من المصاعب التي يتخرجون منها .. كلا ! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينتشون للخطوب ، وأن الخطوب هي التي تنتشى إليه .

هذه القوة في إيمانه كانت هي المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هي المسيطر الأكبر على ماهو أصعب مقادراً من الأخلاق والآراء ، وأشدّ عراًماً^(١) من العقائد والشبهات ، وهي دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلمها خلا منها طبع قوى عزوف غيور .

(١) أشدّ عراًماً : أشدّ شراسة وشدة

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود ولكن ما القول في الدوافع والسورات ؟

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع ولها سكان ، وعليهما معاً رقيب من النواتية^(١) والريان^(٢) .

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفق تحبسه الشواطئ والقناطر ويفيض في موعد ويعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار .

ولكن ما القول في السيل العرم ؟
ما القول في السورة الجاحمة التي ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه^(٣) !

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود .

وهنا أيضاً كانت ضوابط الإيمان القوى في نفس عمر كأقوى ما تكون .

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبي إلى المسلمين ، فأنكر أن ينعى وأبى أن يسمع صوتاً بين المسلمين يزعم أن محمداً قد مات ، وصاح والناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرؤوس : « والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات » .

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى وثيلاً صامتاً لا يكلم أحداً ، وتيمم النبي وهو مغشى بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله ، وبكى .

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج إليهم فقال : اجلس يا عمر ! .. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

فأهوى عمر إلى الأرض وأتاب .

(١) النواتي : الملاح في البحر خاصة جمعه النواتية .

(٢) الريان بضم الراء : من يجرى السفينة .

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة .

بالروعة الشلال الزاخر ؟

وبالروعة السابح القاهر الذى لوى به ليًا كأنما قبض منه على عرف ، وأخذ له بعنان !

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعا عاتيا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق .

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام ، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار ، وغاشية تنجلي عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمانه ، ماض بشعوره إلى حيث يمضى به إيمانه ، فهما قوتان غالبتان ، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين .

لقد كانت تلك سورته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أخرها .

فقد عهدت هذه السورات فى طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتقونها ، وأوشكت أن تحسب فى عداد الأنهار المحكومة لا فى عداد السيول الجارفة . انطلقت من عقالها .

ذهب إليه بلال مستئذنا فقال له الخادم إنه نائم ، فسأله : كيف تجدون عمر ؟ قال : خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال : لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه !

فهو الإيمان ضابط كل شيء فى تلك النفس حتى السورات التى ليس لها ضابط فى النفوس .

أو قل إنها هى النفس القوية فى دفعاتها وفى ضوابطها على السواء .

ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التى لا يقف فى طريقها إلا ضابط أقوى منها فتلك هى الطبيعة الحيوية المضاعفة ، وليست هى الضعف الذى يتراجع لأهون مراجعة .

نذكر هذا وينبغى أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الإيمان الذى يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذى يكبح القوى الجياش فرق عظيم .

ولم يكن عمر معرضاً عن زخارف الحياة لهزال كان في دواعي الحياة فيه . وإنما كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً على الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة . وكان معرضاً عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع . فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبداً أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة .

حيوية الروح وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل وحيوية الجسد وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات .

فليس من الضروري إذا رأيت رجلاً قليل الاشتهاى لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفاً من النفوس لاتجد متاعها في أكلة أو شهوة وتجد المتاع في إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشرعية بين الناس . وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه .

لم تكن قلة الرغبة في زخارف الدنيا هي مقياس حيويته العظمى وإنما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة في الإصلاح والتقويم ، وفي إجراء ما ينبغي أن يجري . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد .

* * *

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التي كانت غالبية على نفس عمر ابن الخطاب ، وهي العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان .

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة في نفس واحدة ، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس - وليست بصغيرة - فتنتعها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها . ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته ، حتى كأنها لم تعهد في غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها .

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها في هذا السياق ، وإنما العجب العاجب حقاً هذا التركيب الذى ندر مثيله جداً بين خصائص النفوس كأننا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتيار .

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبية » ولا نقول هذا التركيب ، لأن صفاته الكبيرة

تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم ، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهى سهلة بسيطة ليس فيها شيء عويص أو مكثف بغموض .

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والإعجاز ، أو جانب الندرة التى يعز تكرارها فى طبائع النفوس ، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعا واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة ، وهذا هو النادر جد الندرة فى تركيب الأخلاق .

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالإحسان ؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله وتجعل حبه للعدل كأنه حب هواه وقبله مناه ؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عنمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير ؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الإنصاف ؟

كل صفة تنتم لجميع الصفات .

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل .

وكل خليقة فهى جزء لا ينفصل من هذه « التركيبية » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنا اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها .

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان .

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح .

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام إلى نور ، وبغير الإيمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد في مرآها ، ولا تزال في صورة البساطة بعيدة عن التركيب ، فيخطئ النظر القصير في التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشيء البسيط المحدود ، وإنه لخطأ شائع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر ، وهي أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد في الألوان ولا يزيد في الإتمام والتوحيد والإتقان .

ولو أن مخترعا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياء أن يخترع ذلك الشئ المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقراه القارئ بعد ذلك فيقبل منه ما يقبل ويسقط منه ما يسقط ، ثم يبقى منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات .

فلا اختراع في جملة أخبار عمر وإن جاز الشك في بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك في هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الإسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه . وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه . ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار .

هذه هي المعضلة التي عيناها حين قلنا في صدر هذا الفصل إن سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هي سهولة أصعب من الصعوبة . لأنها تنتهى بك إلى صعوبة التركيب التي هي أندر من التعقيد والغموض ، وترتك عناصر شتى قد تتناقض في غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض في شيء ذى بال ، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر في وجهة معارضة لسائر الجهات ، فأما أن تكون كلها ذاهبة في وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان .

ولهذا كانت دراسة عمر غنية لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة ، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى . لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهي إنسان يضيف العلم به إلى علم النفس بعض الإضافة .

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التي تصحح أوهام الواهين في فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفي القدوة المثلى التي يقتدى بها طلاب الرفعة والسيادة .

ونحن في عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسبهما حيلة من حيل الطبع في خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء . كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم ، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويا لتنفيذ قوته فائدتها في خدمة المحتاجين إليها .

فعمر ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة ، أصدق تفنيذاً لذلك الوهم الأخرق البليد . إذ كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه ، بل كان بأسه معواناً لرحمته وكانت غيرته معواناً لعدله ، وكان هو قويا ليتنفع الناس بقوته ، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته على الضعفاء .

ولم يكون لزاماً أن يقسو ذو البأس ولا يرحم ؟

ألا يقسو الضعيف ؟ فلم العجب إذن من رحمة القوى ؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء . فأما العقل الذي يرى الرحمة غريبة في الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة في الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء . إذ الواقع في الدنيا أن القسوة لاتدل على القوة ، وأن الرحمة لا تدل على الضعف ، وأن ليس في الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء .

وبغير إمعان طويل في دقائق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق بين الخصلتين وتجمع بينهما معا في عمر بن الخطاب ونعنى بها عائكة بنت زيد حين قالت في رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى أخى ثقة في النائبات منيب

وهي تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك ، وإنما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء .

مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض ، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا إغلاق !

وليس مفتاح البيت وصفًا له ولا تمثيلًا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دوائرها ولا تزيد .

ولكل شخصية إنسانية مفتاح يسهل الوصول إليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات .. وهنا أيضًا مقارنة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت . فرب بيت شاخ عليه باب مكن يعالجه مفتاح صغير ، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح .

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة ، ولا بالفضيلة والنقيصة ، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح ، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفي أو عسير .

وقد يحيرنا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد :

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يدها بالجود حتى شابه الديما^(١)
فإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء ، ولا ندرى حقا عمله من الكرم أم من البخل ، ومن الرفعة أم من الخسة ، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم ؟ وغاية ما ننهي إليه أن نفرض المشكلة بكلمة واحدة هي الوسواس وهي حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية : وهو ترك التفسير .

(١) الديم : جمع ديمة ، وهي السحابة الممطرة .

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها ، كالشمس الطالعة تروعا بإشراقها في أوقاتها وبروجها ، ثم لا تحيرنا لحظة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفى من بعيد .

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحاً لمن يبحث عنه ، فليس فيها باب معضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام .

وقد ذكرنا في الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته ، ولكن الذي نريده بمفتاح الشخصية شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها : نريد به السمة^(١) التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحث عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة عمر وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء .

والذي نراه أن « طبيعة الجندى » في صفتها المثل هي أصدق مفتاح « للشخصية العمرية » في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم .

فأهم الخصائص التي تتجمع « لطبيعة الجندى » في صفتها المثل الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات .

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم في تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيراً أنها لازمة للجندى في أمثل حالاته . فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذي تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده .

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجاً إلى التنقيب طويلاً عن واحدة منها في نفس عمر ؟ هل تجدك محتاجاً إلى عمل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدا ومواقعها ؟

كل هذه الخصائص عمرية لاشك فيها . فهو الشجاع ، الحازم الصريح ، الحشن ،

(١) السمة : العلامة والشارة المميزة .

المطيع ، الغيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب للنظام ، المؤمن بالواجب والحق ،
الموكل بالإنجاز ، العارف بالتبعات والمسئوليات .

هذه الخصائص واضحة كلها في عمر ، وعمر وحده واضح بين أمثاله في جميع
هذه الخصائص ، حتى ليخيل إلينا لو أن أحدا مولعا بتأليف الألفاظ سأل عن عظيم
في الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان
الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب .

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص في تفرعاتها الثانوية وأشكالها العارضة
أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجلية التي هي بمثابة الأصول الجامعة
في طبائع الجنود .

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل في الجندی الباسل ، فقد ينساق إليه بطبعه وقد
يحتاج إلى توعده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة .

لكن النظام كان خلقا أصيلا في طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه في
عداد الأشكال والنوافل^(١) .

أرأيته وهو يصلي بالناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلا بذلك ؟ أرأيته
وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد في شهر رمضان أوزاعا متفرقين حول كل قارئ؟
فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارئ واحد ؟ أرأيته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين في الطريق
ويذكرهم هيئة القانون ؟ أرأيته وهو يركب في السوق فيكسر ما برز من الدكاكين
ويحقق التجار بالدرة إذا تكوفوا^(٢) على الطعام وقطعوا طريق السابلة ؟ أرأيته وهو لا
يزال يأمر بالمثاعب^(٣) والكنف^(٤) أن تقطع عن طريق المسلمين ؟ أرأيته وهو ينهى
الولاء عن الاتكاء في مجالس الحكم ويكتب إلى عمرو بن العاص « وقع إلى أنك تتكئ
في مجلسك ، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ » !

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلم المنبر بعد أبي بكر لأن الخليفة
الأول أحق منه بالتقديم ؟

(١) النوافل جمع نافلة ، وهو الزيادة . (٢) تكوفوا على الطعام : اجتمعوا عليه . (٣) المثاعب : مسايل الماء .

(٤) الكنف : جمع كيف وهو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد .

ذلك هو السمт العسكرية بالفطرة التى فطر عليها ، وليس هو السمт العسكرية بالأسوة والتعليم .

وبالفطرة التى فطر عليها كان يجب ما يحسن بالجندى فى بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول : « إياكم والسمنة فإنها عقلة^(١) » ، وكان يقول : « إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة » وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن « من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن كثر سقطه^(٢) قل ورعه » . وكان يمشى « شديد الوطء على الأرض جهورى الصوت » كما يمشى الجنود وكما يتكلمون ، وكان يأمر بتعلم الرماية والسياسة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندى وتهذب بها الأبدان والأخلاق .

وإذا ارتقينا من هذا إلى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دون الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث . فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين . وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود ... فالحاضرون فى « الحديبية » يأتون بعدهم فى التقديم ، والذين اشتركوا فى حرب الردة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء ، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين ، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم .

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشر الجنود أى جعلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود .

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدييرا كبيرا أو صغيرا فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحد .

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو ، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الإسلام ، قال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله ! انزع

(١) العقلة : القيد والعقال .

(٢) السقط : الخطأ من القول والفعل .

ثنيته^(١) السفلين فلا يقوم عليك خطيئاً أبداً . وكان سهيل أعلم - أى مشقوق الشفة السفلى - فإذا نرعت ثنيته فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه .

* * *

والقضاء لم يكن من لوازم « الطبيعة الجندية » وإن تولاه القادة والجند في أيام الفتن والأيام التى تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة .

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكرى الذى يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمى الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين ؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل إليه فإذا هو أحسن الناس شعراً وأصيحهم وجهاً . فأمره أن يجم^(٢) شعره ، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسناً ، ثم أمره أن يعتم فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معى رجل تهتف به العواتق^(٣) فى خدورها ، وزوده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه .

وفى القضية جور على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن فى سبيل مصلحة أكبر وأبقى ، أو فى سبيل مصلحة يرعاها «الحكم العسكرى» فى أزمنة كزمان عمر ، ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج ، يرعاها أحياناً بمنع الإقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، و تحريم تجارة لا حرام فيها ، أو مراقبة إنسان يخشى أن يقود إلى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد من الليل .

ولسنا نقول إن هذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكماً لازماً لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكننا نقول إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التى سميها «مفتاح شخصيته» وهى المقصودة بما نكتبه الآن .

وقد كان له فى قضائه ذلك الحزم الذى يقطع اللجاجة^(٤) وينهض بالحجة على كل ذى خلاف كلما اشتجر^(٥) الخلاف : كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن

(١) الثنية : من الأسنان ، وجمعها ثنايا وثنيات ، وفى الفم أربع .

(٢) يجم شعره : يقصره . (٣) العواتق : جمع عاتق وهى الشابة الصغيرة .

(٤) اللجاجة : تمادى الخصمين . (٥) اشتجر : تنازعا .

معد يكره وأبا جندل وضراً وجماعة من عليّة القوم والوجه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا «إننا خيرنا فاخترنا». قال : ﴿هل أنتم منتهون﴾ ولم يعزم^(١) .. وكأن أبا عبيدة تخرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه ، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد ويسألهم سؤالاً لا يزيد عليه ولا ينقص منه : أحلال الخمر أم حرام ؟ فإن قالوا حرام فليجلدهم ، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم . فقالوا : بل حرام ، فجلدوا وتابوا .

* * *

وربما تجمع للرجل كل ما في «طبيعة الجندی» من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس إلا أن يأتي بعمل ينم عليها ، فيدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعاً على أن يطيع ولا يكون مطبوعاً على أن يطاع ، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فإنما تجيء من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات ، لأن الشجاعة مثلاً لا تلازم الهيبة في كل حال ، فقد يكون الشجاع مهيباً ويكون غير مهيب أحياناً ممن تقتحمهم الأنظار ويجترء عليهم المستخفون .

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له «طبيعة الجندی» ظاهرة وباطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه ، فما يجترء عليه يجترء إلا أن يطمعه هو ، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء .

وهي في موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويحفل منها من يحتمى بجاه أو كبرياء . شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه في حد كان بينهما ، فدعا بأبي سفيان والمخزومي وذهبوا إلى المكان الذي تنازعا ، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبي سفيان : خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا .. فأبى وتردد ، فعلاه بالدرّة وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فإنك ما عملت قديم الظلم ، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال ، ولو غير عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنّها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها .

كان يوماً^(٢) في مجلس عمر وزياد بن سمية^(٣) يتكلم وهو يومئذ شاب ، فأحسن

(١) لم يعزم : لم يحدد حكماً قاطعاً . وعزيمة الله ، فريضته التي افترضها . (٢) أى أبو سفيان .

(٣) اشتهر باسم «زياد بن أبيه» ولم يكن معروف الأب ، وفي عهد معاوية ، شهد ناس من المسلمين أنه اس أبى سفيان فاستلحقه معاوية «أى اعترف به أنحاً له» وولاه الصرة . اشتهر بالدكاء وسعة الحيلة والخطابة .

كمعادته في مجال الخطابة والمشورة ، فأعجب به عمر وهتف به : الله هذا الغلام ! لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه .

وكان على بن أبي طالب إلى جانب أبي سفيان ، فمال إليه هذا وهمس في أذنه كلامًا فحواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش . قال على : فمن ؟ قال : أنا .. قال فما يمنعك من استلحاقه ؟ فهمس له : أخاف هذا الجالس أن يخرق على إهابي^(١) . وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر ، والطاعة هي الطاعة .

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لا سيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع . ذلك هو الجندى المطبوع .

جندى من جنود الله في معترك الحق والإيمان . وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبي الذي يوحى إليه ، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع . يأمر الله بالطاعة واجب لا هوادة فيه .

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجع من دونه ويرتفعان معًا إلى القانون ، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وإنكار سلطانه حينما استقر على قرار ، فإن رجع القائد عن أمره فحسن ، والمراجعة إذن خير لا ضرر فيه ، وإذا مضى في أمره فلا خلاف إذن فيما يجب : فالذي يجب إذن واحد ، وهو أن يطاع .

كذلك راجع عمر النبي في مسائل شتى ، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها ، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه .

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر في كبريات المسائل وصغارها ، فكان أبو بكر يثوب^(٢) إلى رأيه كثيرًا ، ويصر على ما بدا له إذا رأى الحسنى في الإصرار ، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأن لم يكن خلاف .

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة ، وتصريف الرأى ، والاضطلاع بأعياء الموقف كيف كان .

(١) الإهاب : الجلد .

(٢) يثوب إلى رأيه : يرجع إليه ويأخذ به .

اشتد المرض بالنبي عليه السلام فقال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده .. قال عمر : إن النبي ﷺ غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا القانون الأعلى .

أما القائد الأعلى فهو في مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة ، وهو مع ذلك لم يصبر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة ، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة : قوموا عني . ولا ينبغي عندى التنازع ، ثم عاش عليه السلام أياماً ولم يذكر الكتاب .

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة .

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التي توجبها عليه نفسه ، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها .

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد ، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى ، وأشار إليها في كلامه غير مرة فقال في خطبة من خطبه ما فحواه : (.. كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخاده وجلوازه^(١)) ، وكان كما قال الله تعالى : «بالمؤمنين رؤوف رحيم» ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمت على الناس لما كان أمره ..)

فهو جلواز النبي وسيفه المسلول كما وصف نفسه .

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ، وموقع المشاورة ، وهو مع التبعة حيث لا مهرّب منها ، وتلك هي الجنديّة في صورتها المثلى .

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد ، وهو الوصول إلى الأمر الذي يحمل التبعة فيه .

فإذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرعوسيه فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع ، وعرف كيف ينبغي أن يطاع ، وعرف ما يتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات .

(١) الجلواز : الشرطى .

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى تعمل فيها الروية عملها ، أو تختلف مذاهب الآراء فيها .

كانت هذه أيضا من مخالفات «الجندى» التى يندفع إليها كلما غلبته الحماسة وثارَت به الحمية .

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله : لا تحبوه !

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه !
فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبى قحافة^(١) ؟ فسكتوا ..

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب ؟ وكررها ثلاثاً .. فلما لم يسمع جواباً قال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم !^(٢) .

كثير على عمر أن يحتوى صبره فى هذا الموقف أكثر مما احتواه . فما قالها أبو سفيان حتى صاح من مكانه : «كفرت يا عدو الله . ها هو ذا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وأنا أحياء ! ولك منا يوم سوء !» .

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة .
لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفات كما لهم طاعات .

* * *

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخص من سائر الفكاهات والأهواء .

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى إليه معنى مضحكاً فيه صراحة وخشونة ، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم «بالنكات العملية» .

فرغ رسول الله يوماً من بيعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء ، فاجتمع إليه نساء من قريش فبهن هند بنت عتبة متتعبة^(٣) متنكرة ، لما كان من صنيعها بحمزة^(٤) رضى الله

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(٢) حدث هذا بعد نهاية المعركة . وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا فى الموقعة .

(٣) أى تلبس النقاب وهو الحجاب .

(٤) هند : زوج أبى سفيان ، وهى التى مثلت بحمزة بعد أن قتل فى أحد .

عنه ، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها . فلما دنون منه ليبياعنه قال عليه السلام : تباعيننى على ألا تشركن بالله شيئاً .

قالت هند : والله إنك لتأخذ أمرًا ما تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه .

قال : ولا تسرقن .

قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة^(١) والهنة وما أدرى أكان ذلك حلالا لى أم لا .

قال أبو سفيان وكان شاهداً : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل .

فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة !

قالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول : ولا تزنين .

قالت : يارسول الله هل تزنى الحرة ؟

قال : ولا تقتلن أولادكن !

قالت : قد ريبتهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم فضحك عمر

ابن الخطاب حتى استغرب^(٢) ، وكان قليل الإغراب فى الضحك ، فإن استغرب ضاحكاً بين حين وحين فإنما يضحكه مثل هذه الفكاهة .

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم : دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد . وشجعهما إصغأؤه واستعادته فسألاه : أينا أحسن صنعة ؟ قال : مثلكما كمثلى حمارى العبادى . سئل : أيهما شر ؟ فقال هذا ثم هذا !

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب الخطيئة ليكف عن هجاء الناس . فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالخطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بأشفى^(٣) - أى مثقب ، وشفرة ، يومه أن سيقطع لسانه ، فضج الخطيئة وتشفع الحاضرون فيه ، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجون أحداً بعدها ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فما هجا أحداً بعدها وعمر بقيد الحياة .

(١) الهنة : مؤنة المن وهو الشيء . (٢) استغرب فى الضحك : بالغ فيه .

(٣) الأشفى : المثقب ، والشفرة ، والسكين العظيمة .

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التى تعهد فى طبيعة الجند ، وهى فكاهة لا يطمع منه فى غيرها .

وشاءت الجاهلية أن تورطه فى بعض أهوائها فكان هواه منها معاقرة الخمر يحبها ويكثر منها . وقد نرى أنه هو قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم ، إذ الخمر توافق ما فيهم من سورة طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه ، وتصاحبها فى كثير من الأحيان . ضجة يألّفونها .

وقد أحب ضجة الدفوف وهى فى سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس . فسمع ضوضاء فى دار فسأل : ما هذا ؟ قيل له : عرس ! فقال : هلا حركوا غرايبهم ؟ أى الدفوف !

على أنه كان يحب الغناء جملة ويطيل الإصغاء إليه ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حاد وهم منطلقون إلى مكة فى جوف الليل فما زال يوضع راحلته^(١) حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : إيه ! قد طلع الفجر . اذكروا الله .

* * *

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها . ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد إلا أن يكون كعمر فى أصالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه ، فلا يخلد منه جزء جزءًا ، ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى ، وجينثذ لا عجب أن تنم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والألوان والشيات . كما أنه لا عجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغًا ما بلغ التعدد فى مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال .

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لا تمت إليها على ظاهرها . كأثرها فى تحريم رق العربى وفى إخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهى شنشنة الغيور على الحوزة ، الموكل بحماية الدمار^(٢) .

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد

(١) يوضع راحلته : يحملها على السير السريع .

(٢) الدمار : ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه ، والحرم والأهل والحوزة .

ولو كان إشارة باليد أو نبأة من صوت . فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهدًا أن يتجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه ، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات .

وإنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قرارًا فيها ووجدت عليه صبغة منها .

فهى لا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء .

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوى وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوراته ، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الإيمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه إلى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الإيمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنًا واحدًا فى البواعث والمظاهر والآثار .

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه : كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى .

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبدًا عيشة المجاهد فى الميدان .. فأثر الشظف وقع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه .

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبدًا كموقف الجندى الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل .. فإن تجمه المسامحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب .

وكان معتمدًا على الغيب موصولاً بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينه . ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب ، أو تستطلع إطلعه^(١) وتنتظر منه الحماية والهداية .

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم ، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها ، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة .

(١) يقال : فلان أطلعنى على الأمر ، أو أطلعنى بطلعه بكسر الطاء .

وكان عمر يتفاعل بالأسماء وينظر في الرؤى والمنامات ، ويروى عنه في روايات متواترة أنه أنبىء بموته في منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين .

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا : من أنت ؟ فقال : قاضى دمشق . قال : كيف تقضى ؟ قال : أقضى بكتاب الله . فسأله : وإذا جاءك ما ليس في كتاب الله ؟ فأجابه : أقضى إذا بسنة رسول الله ، فسأله ثانية : وإذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد برأى وأوامر جلسائى . فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا : «إنى أسألك أن أفتى بعلم ، وأن أقضى بحلم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا» .

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر : ما أرجعك ! قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، مع كل واحد منهما جنود من الكواكب . فسأله : مع أيهما كنت ! فقال : مع القمر !!

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ ﴾ ثم قال : لا تلى لى عملا^(١) .

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظيره فيها ، لا ندرى مبلغها من الصحة فى تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، إلى جانب الإيمان القوى لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين . ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجندية ، بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء إلى طبيعة الإيمان .

وأن نضيف هنا أستدراكا آخر لعله أدعى إلى البحث من القول فى الجهاد والإيمان ، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة ، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان فى كل محارب ، ولا سيما المحارب نضحا^(٢) عن دين ووفقا لشريعة .

(١) لا تلى : لا هنا نافية وليست ناهية ، فالفعل بعدها مرفوع .

(٢) نضحا : دفعا .

فالعدل يفتقر إلى شجاعة وشرف ، وهما خصلتان مطلوبتان في الجندي المطبوع فأما الشجاعة في الرجل العادل فتحميه أن يحايى الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خسة ، ولا تناقض بين هذه الخصال .

إنما المحارب المعتدى هو الذى «يحارب لحسابه» كما يقولون ، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهابا مع نزواته ، ومن هذا الطراز الاسكندر وتيمور ونابليون .

أما المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها .

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقربان كما رأى عمر بن الخطاب .

ومصدق ذلك ظاهر في كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة ، أو إرادة ضمير له قانون . فطبيعة الجندي في هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف في شئون المعاش ، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها ، أو هي جميعاً في هذه الخصلة سواء .

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين ، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل ولو كان في ميدان القتال ، وسنتهم هي سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين . ثم قال : «لا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور»^(١) ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وابشروا بالإرباح»^(٢) في البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

وذلك هو الجندي في حالته المثلى .

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق هذا الجندي العادل الكريم .

(١) الظهور : النصر .

(٢) الإرباح : الحصول على الربح .

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمل به الرجل اليوم وينسأه غدًا ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقابه ، أو يلتفت إلى عقابه ولا يتوقع لها أثرًا يغير فى مجرى حياته . فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء .

لكن العمل الذى تتحول به حياة الإنسان تحولًا حاسمًا لن يرجع إلى سبب واحد ، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب ، بعضها حديث وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطبع والخفى المستعصى ، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب .

فالرجل الذى يغير موطنه أو معيشته أو زيه لافعل ذلك عفو الساعة ولا تلبية لاقتراح يوحى إليه فى مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه ، وأنه لم يكن ليلبيه لولا ما سمع فى تلك اللحظة العارضة ، فهجر أهله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة .. وإنك سائله ساعتئذ : « انك قد هجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبيت اقتراحًا ، فهل تعلم لم لبيت الاقتراح ؟ » فإذا سألته ذلك السؤال رددته إلى نفسه ، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك ، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم . بل سمع الاقتراح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعدًا للتحول ماضيًا فى طريقه . ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه .

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية ؟ إننا إذا استصغرنا السبب لواحد فى تفسير تلك التغيرات فهو لامراء أصغر من ذلك جدًّا فى تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد .

لأن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة ، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلدا ، وإذا غير زيه فإنما يغير سمتًا^(١) يقوم على كساء ، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونه آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله ، وغير حاضره وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ

(١) السمت : الهيئة .

وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ، ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ماوراء الآباء والأجداد .

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة .

ولابد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيئة ، وأسباب موقوتة هي أظهر تلك الأسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم في العالم ، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم في نظره حدث عظيم ؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما في الإسلام وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه ، وترويض عناده ، والتقريب بينه وبين الخشوع الديني والهداية الإسلامية . فهل نقف عند هذا الندم وكفى ؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف ؟

ومما لاشك فيه أن عمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى لأُم عبد الله بنت حنتمة وتركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة . وكانت هي على صواب حين طمعت في إسلامه ورجالها يائسون منه . فقد سألتها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً : كأنك قد طمعت في إسلام عمر ؟ قالت : نعم . قال : إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل في خطفة عين .. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطاً بذلك الغضب كيف تتلطف في تحويله ، وتلك الرقة كيف تتلطف في ابتعائها من مكمنها ؟ وهل تحجبها عنها القوة وهي ما نفذت إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة ؟

فعمر كان مقترباً من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله ، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منظرًا لا يقوى على دفاع . ولكنه كما قلنا سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذي يومئ^(١) إلى السبب العميق : سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف ، وسبب عميق هو الرحمة التي تجمل بذى نخوة كريم . وليس الإنسان كله ندماً ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحمته . فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل .

(١) يومئ : يشير .

وقد تعددت الروايات في إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات في اللفظ واتفق في المغزى ، وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرهما باطل لا يشتمل على حقيقة . فلم لا تكون صحاحا كلها ؟ ولم لا تكون أسبابا متعددة في أوقات مختلفات ؟ فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلا من الحشو هنا ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لا تعارض بينها في الجواهر ، وقد يعزز بعضها بعضاً في نسق السيرة وفي لباب النتيجة .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للإسلام مباعدا ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش .. فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحداً . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار ! ... وخرجت فجئته فلم أجده ، قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أنى استمعت المحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! وقام بنفسى أننى لو دنوت أسمع منه لأروعه^(١) . فجئت من قبل الحجر^(٢) فدخلت تحت ثيابه ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام » .

وروى ابن إسحق في سبب إسلامه كما نقلنا عنه في كتابنا « عبقرية محمد » : « أن عمر خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه .. قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق وعلى بن أبى طالب في رجال من المسلمين رضى الله عنهم .. فلقيه نعيم ابن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابى^(٣) الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

(١) لأروعه : لأفرعه .

(٢) الحجر : بكسر الحاء حطيم مكة ، مدار البيت من جهة الشمال .

(٣) الصابى : الخارج من دين إلى دين .

قال وأى أهل بيتي ؟ قال : ختنك^(١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه . فعليك بهما .

قال .. فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ماهذه الهيمنة^(٢) التي سمعت ! قال له : ما سمعت شيئا ! قال : بلى والله . لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها ، فضربها فشحها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم . قد أسلما وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ماهذا الذي جاء به محمد ... وقرأ سورة طه ، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب . فالله الله يا عمر ! فقال له عند ذلك عمر : دلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل^(٣) الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع إلى رسول الله وهو فرع . فقال : يا رسول الله ! هذا عمر ابن الخطاب متوشحا بالسيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : نأذن له ، فإن كان يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا اقتلناه بسيفه . فقال رسول الله : أئذن له .. ونهض إليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بمحجزته^(٤) أو بمجمع رداءه ثم جبهه جبذة^(٥) شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة^(٦) ! فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! .. » .

(١) ختنك : الختن : الصهر ، زوج البنت أو الأخت .

(٢) الهيمنة : الكلام الخفى غير الواضح .

(٣) الخلل : الفرجة بين الشقين . (٤) بمحجزته : المحزمة موضع شد الأزار من الوسط .

(٥) جبذ : حذب (٦) القارعة : الداهية .

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب « المباشرة » التي قربت بين عمر والإسلام ، وتتفرع منهما روايات منوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد لقتل النبي من قبل قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر في بيت أخته غير الآيات التي تقدمت الإشارة إليها في سورة طه . وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها ، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر . فلما بلغ ﴿ .. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت شطرين وزيدت عليها الحواشي والأطراف ، فاختلفت في ألفاظها ومواعيدها واتفقت في جوهرها ومدلولها ، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التي هي أشبه أن تهديه إلى طريق جديد .

وهي كما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب « المباشرة » التي اقترنت بإسلام عمر ، ولا تغنيها عن الأسباب الأخرى التي هي أساس هذه الأسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقا أن تأخذ بلاغة القرآن ، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان .

فقد كان مهيا للإسلام لا محالة ، وكانت مجافاته للإسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل ، والأتطول إلا ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير .

فلم يكن بين عمر والإسلام في بداية الأمر إلا باب واحد للعداء .

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحا بينه وبين هذا الدين الجديد ، ماهو إلا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه .

كان باب العدا بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز في قومه . فإذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال - أمر قريش ويسفه أحلامها ويعيب دينها ويسب آلهتها ، فلا جرم يثور ويغضب وينقم ، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض^(١) المعابة عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير عاد ولا باغ ، وأن البغي والعدوان إنما يجيئان من قبل

(١) رجض الثوب : غسله ويرحض العابة عن شرف آبائه : يزيلها .

ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والإسلام ، وهو باب لا يطول مدخله فى نفس طبعته على العدل والإنصاف .

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد إلا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للإسلام إلا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار .

فرمما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة ، أو لأنهم جبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب .

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم .
وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر ، بل كان فيه العلم المترفع المضىء بين الأعلام .

كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة ، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل ، فكان يطرب لقول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء^(١)
ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ما قسم ! وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظم^(٢) بين القوافى ولا يتبع حوشى الكلام .

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يرق الفجر فيقول لجليسه : « الآن اقرأ يا عبد الله » .

وجاءه يوما بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر : أما وإن زهيراً كان يقول فيكم فيحسن ، فقليل له : كذلك كنا نعطيه فنجزل . فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

(١) يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة ، يمين أو حكومة أو بينة .

(٢) يعاظم : عاظم بالكلام عقده وصعبه واستخدم حوشيه وغريبه .

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول :
حلقت فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للمرء مذهب
قالوا : نابعة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :
أتيتك عاريا خلقتا ثيابي على وجل تظن بى الظنون^(١)
فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون
قالوا : هو النابعة فقال : هو أشعر شعرائكم .

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطيب :
والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل
وينشده فيقول : على هذا بنيت الدنيا ! ..

وندر بين أئمة الدين من غاص فى أدب قومه غوصه ، ووعى من أشعارهم وطرهم
مثل ماوعاه . قال الأصمعى : « ما قطع عمر أمراً إلا تمثل فيه بيت من الشعر » . ونحن
نرجع إلى الشعر الذى تمثل به فنراه فى أحسن موقع وأصدق شاهد ، ونلمح من قليل
أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانباً من جوانبه التى ترق فيه حاشيته ، ويأنس فيه
إلى قلبه ، ويرجع فيه إلى فطرته جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه فوجده مستلقياً
على مزحفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال :

وكيف ثوائى^(٢) بالمدينة بعدما قضى وطرا منها جميل بن معمر
فلما دخل عبد الرحمن وحلس قال له : يا أبا محمد : إنا إذا خلونا قلنا كما يقول
الناس .

ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ، بل نظر فى
فهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم ، ففضل امرأ القيس لأنه « سابقهم ، خسف لهم عين
الشعر فافتقر عن معان عور أصبح بصر »^(٣)

ونواده مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل
ما يحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهد وأمثاله .

(١) الثوب الخلق : البالي . (٢) ثوائى : إقامتى .

(٣) خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصبح بصر : استتبط عين الشعر وشتق طريق المعالى وأتى بالشوارد
الحسان . راجع باب « ثقافته » .

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح . فقد نسبت إليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمت الشعر لقلته في رثاء أخى . ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته ، وأنه نشأ في قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ما أعجبه ، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر في أكثر من مناسبة وروى عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية :

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجال لا ينهها الوعيد^(١)
ريبع المعدمين وكل جار إذا نزلت بهم سنة كمود^(٢)
هم الرأس المقدم من قریش وعند يوتهم تلقى الوفود
فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصرهم إذا أدعو عتيد
فلست بعادل عنهم سواهم طوال الدهر ما اختلف الجديد^(٣)
إلى آخر ما نسب إليه .

فأقرب شيء إلى الواقع - وإلى المتوقع - أن يؤخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب ، وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء .

وكان عمر مستقيم الطبع مفظورًا على الإنصاف ، فلم يكن رجل مثله ليسترى إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهدى إلى ما هو خير منه .

وكانت النزعة الدينية وراثية في أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام ، وكان له قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق في النصرانية واليهودية ، ويتلى أهله بالخلاف ويتلونه بالإيذاء والحبس والإرهاق ، ويعنى به زيد بن عمرو بن نفيل .

وعمر نفسه .. ألم يقل لنا إنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات ؟ ألم يكن في الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع ؟ بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن في صميمها شيئًا مناقضًا لعنصر الدين والإيمان . فإن هؤلاء الصلاب الشداد

(١) لا ينهها الوعيد : أى لا يهزون التهديد . (٢) سنة كمود : شديدة مظلمة .

(٣) الجديد : الليل والنهار ، يعنى أنه لا يعدل بهم قَوْمًا آخرين مهما تعاقب الزمان .

في المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون^(١) الذين لا يطبقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين .

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكاة^(٢) وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويصبر على البعد كما سلف في حديث سارية حين ناداه ياسارية الجبل ! ياسارية الجبل . وبينهما مسيرة أيام .

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة ، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياه . إذ ليس أبغض إلى الرجل الأئى المنتصف من أن يحارب أناسا لا يحاربونه ، ويلج في إيذاء قوم لا يقدرّون على أذاه . فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعا بين عمر والإسلام فباب واحد موصل لن يحجبه طويلا عن هذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه . وقد تفتحت في يوم من الأيام .

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغي أن يسلم ، وكما كان يقينًا سيسلم في مناسبة من المناسبات . فإذا العالم الإنسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة :

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شئ ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منتشة من لدن المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرة تلبس الضعيف فيقوى ، وتلبس القوى فتسمى قوته وتجربى به فى وجهته ، وكان يدًا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فإذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضماير والأذهان . جاهلى كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان .. ونفس ضائعة ردت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر ، واطلع منها على ما كان يجهل ، ونفع بها أمتها وأما لا تحصى ، وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء .

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب التوازع والأشجان^(٣)

(١) المتزمت : الوقود المتشدد فى دينه . (٢) الزكاة : الفطنة والفراسة .

(٣) الأشجان (جمع شجن) والشجن : الهم والحزن والحاجة الشاغلة .

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس ، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم .

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره . وهذه منزلة في الأنفة لا تطاوها المنازل ، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ولهم أنفُسُ أسمى من عامة الأبطال .

وإننا لنعلم كم حز في قلبه الكريم أن يضرب بريئاً على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الإسلام ، وهي أيام لاتنسى في تاريخ البطولة والأبطال . فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً في سبيل ذلك الدين .

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ما هذه الجماعة ؟ قيل له إن ابن الخطاب قد صبأ .. فقام على الحجر فنادى : إلا إننى قد أجرت^(١) ابن أختي : فانكشف الناس عنه . فكان لا يزال يرى مسلماً يضرب ولا يضربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه : اسمع ! ... جوارك مردود عليك^(٢) . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختي . فأصر على رد جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ، وأن كفر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذى آذاهم من أجله .

وأبى من اللحظة الأولى إلا إن يواجه الخطر الأكبر في سبيل دينه ، وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون في أمثالهم ، وأن يتحدى قريشاً بحقه مذ آمن بأنهم على باطل . فسأل أناساً : أى أهل مكة أنقل للحديث ؟ قيل له جميل بن معمر الجمحى .. فذهب إليه فصرح له بإسلامه ! .. ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته

(١) أجاره : أى أدخله في حماه ورعايته وجواره .

(٢) أى : أعفنى من حمايتك .

على باب المسجد : يامعشر قريش ! ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا .. وعمر يقول من خلفه : كذب ! ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيشب على أذنهم منه وأجرئهم عليه - عتبة بن ربيعة - فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه في عينيه لأنهما عمياوان عن الحق لا يبصران النور ! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « إلا أخذ شريف من دنا منه » حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع ، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه^(١) وهو يقول لهم : « افعلوا ما بدا لكم . فوالله لو كنا ثلثة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » . افعلوا ما بدا لكم ! وهذا ما أراد . فما يستريح وجدانه الحى أن يضرب مسلما لإسلامه ولم يضرب كافرا لكفره ، وما يشعر أنه وفى لله دينه وقد ضرب ولم يضرب وآذى أناسا ولم يؤذ أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه - وقد كانت كأنها من حواس بدنه - إلا أن يحس القصاص في نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه في أنفسهم .

وراح يسأل النبي : يارسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ فقال عليه السلام : بلى ! والذي نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم . قال : فقيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن !

« فما لبث النبي أن خرج في صفين أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ، ولهما كديد^(٢) كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط^(٣) منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .. وسماه النبي يومئذ القاروق .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهما واختصر عززته^(٤) ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها ، فطاف في البيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق^(٥) واحدة واحدة

(١) يثلبونه : يشتمونه ويعيرونه .

(٢) كدية : التراب الناعم . (٣) السليط : البدىء اللسان .

(٤) العزة : عصا لها زج كالرح الصغير ، واختصرها وضعها في حصره .

(٥) الحلق جمع حلقة والحلقة : القوم يجتمعون مستديرين .

يقول لهم : شأته^(١) الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس^(٢) ! من أراد أن يشكل أمه أو يوتّم ولده أو يرمل زوجته^(٣) فليقلني وراء هذا الوادى .. » .

لقد كان له في تحديه هذا لقريش عدتان : شجاعته وعدله .. فما كانت شجاعته في هذا التحدى بأظهر من عدله ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته . إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم لأنه شديد الإحساس بذله ، ومن كان شديد الإحساس بذل الظلم فهو شديد الإحساس بعزة العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادل الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيع عليه ، فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النعمة على الظلم أو يثير حب العدل في وقت واحد ، وإن الموت لأهون من الصبر على هذا التحدى المرذول وهذا الصلف القبيح . وما الشجاعة إن لم تكن هى الجرأة على الموت كلما وجب الاجترار عليه ؟ وأى امرئ أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحق بين يديه ؟ ألسنا على الحق إن حيننا وإن متنا ؟ فعلى الحق إذن فلنمت ولا نعيش على الباطل ، فالباطل كرهه والجبن كرهه . وذاتك ملتقى العدل والشجاعة في قلب العادل الشجاع .

ونهج عمر طريقه في الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام : كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفل بغير الجد الذى لاعبث فيه .. فلا وهن ولا رياء ، ولا حذلقه ولا ادعاء وماشئت بعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر ابن الخطاب .

قال في بعض عظاته : « لا تنظروا إلى صيام أحد ولا إلى صلاته ، ولكن انظروا من إذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا أشفى - أى هم بالمعصية - ورع » . وقال في هذا المعنى : « لا يعجبنيكم من الرجل طنطنته ، ولكن .. من أدى الأمانة إلى من ائتمنه ، وسلم الناس من يده ولسانه » .

وقال في عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وإنما الحرج في الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية .. »

(١) شأته الوجوه : قبحت .

(٢) المعاطس «جمع المعطس» والمعطس : الأنف .

(٣) أى يجعل أمه ثكلى ، أو ولده يتيما أو زوجته أرملة : يعنى «أن أقتله» .

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله ، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك ، أو يفرط^(١) في العبادة ليقال إنه زاهد في الدنيا .

فكان يقول : « إن المتوكل الذى يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله » .. ولا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى . وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض .

وكان يضرب من يتأوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين ، فنظر إلى رجل مظهر للنسك متأوت فخفقه بالدرة وقال : « لا تمت علينا ديننا أمتك الله » ، وأشاروا له إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يادهر ! كل يادهر ! .. ينهاه عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجهه عليه الدين .

وكان كلما رأى شابا منكسًا رأسه صاح به : « ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب ، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر للناس نفاقًا إلى نفاق » .

وأما كان يعجبه « الشاب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة » ، ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعموم والفروسية ، « فأنتم بخير » كما قال : مانزوت^(٢) على ظهور الخيل .

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه في ميدان الحياة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة .

وكانت شجاعته في دينه أندر الشجاعات في النفوس الآدمية .. لأنها الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فإن كثيرًا من الناس ليعدلون عن الصواب الذى يظهرهم بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان ، وإنهم في عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء ، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فهمه ولو قيل في شجاعته ما قيل ، وتلك أشجع الشجاعات .

فشا طاعون عمواس وعمر في طريقه إلى الشام ، فلقية أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلقوا بين ناصح بالمضى وناصح بالقبول : ناصح بالمضى في طريقه يقول إنه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع

(١) أفرط إفراطاً : أسرف وتجاوز الحد ، بعكس التفريط . (٢) النزو : الوثوب .

عنه ، وناصح بالفضول يقول إنه اصطحب « بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء » .. ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعا بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان^(١) إحداها خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ .. ومارام^(٢) مكانه حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف فحسم الخلاف برأى النبي في الخروج من أرض الطاعون والقعود إليها حيث قال عليه السلام : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

فكان إيمانه بصيرا لا يهجم به على عمياء ، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيلة والأخذ بالأسباب ، وكانت نصيحته العامة للمسلمين في أمر الطاعون كراهه الخاص في أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا وكتب إلى أبي عبيدة : « إنك قد أنزلت الناس أرضا غمقة - أى وخيمة - فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة^(٣) » وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم في هذه الأيام .

* * *

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه وضرره فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه^(٤) : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » .

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ويتبركون بها ، فأوعدهم^(٥) وأمر بها أن تقطع ، مخافة أن تسرى إلى الإسلام من هذه المناسك وأشبابها لوثة^(٦) من الوثنية والتوكل على الجماد .

* * *

وربما التبس الأمر من نواذر عمر في التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينههم أن يميئوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا وأوجبوا مالا يجب على المؤمنين .

(١) العدو : المكان المرتفع . (٢) رام : رح وترك . (٣) النزهة : المرتفعة .

(٤) استلم الحجر الأسود : أى لمسه إما بالتقبيل أو باليد .

(٥) أوعد : تستخدم في الشر ، أما وعد فتكون في الخير . (٦) اللوثة : الحماقة .

فلا يلتبس الأمر بهذا الملتبس ، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التي صحبت تلك النوارد ، فسررتها ودلت على الغرض منها .

فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين ، وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك في عمله وينزه يده وأيدي أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بين المال ، ثم يفى للذكرى صاحبه الذى خلفه على المسلمين ، فلا يعيش في مكانه خيراً من عيشته ، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبى لآله وذويه .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكول والملبس ، وبأبى أن يذوق في المجاعة مطعمًا لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وجد منهم من لأمه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس . فانتقاء هذا الحاسب وماوراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبى في معيشته ومعيشة أهله ، مما يشبه تقشف النساك .

وعلى هذا كله كان أعلم الناس أن الطيبات حلال ، وأن النهى عن الحلال تنطع في الدين يأباه الإسلام .

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها في قتال ، فأنكر عليه ذلك وأجابه : « إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة^(١) في قتال من كفر بالله) .

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع ، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة : أمنتني أن آكل الخبز واللحم ودعوتني على هذا ؟ قال : إنما دعوتك على طعامي ، فأما ذاك فطعام المسلمين .

(١) النصبة : التى أصابها النصب ، وهو التعب .

فللمسلمين حل ما شاعوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله ما يكفيه . والخرج كل الحرج عليه - وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده - أن يأخذ منه مالا حاجة به إليه ، وإنه ليزداد حرجًا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرًا مما أصاب الرسول .

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه ، بل ربما لامهم على التقدير كما كان يلومهم على الإسراف .

أنكر على عامله فى اليمن حلالاً مشهورة ودهونا معطرة فعاد إليه العام الذى يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس^(١) ، فقال : لا . ولا كل هذا .. إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى^(٢) . كلوا واشربوا وادهنوا ، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم .

* * *

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع من لم يكن من أهل الإسلام فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية . وإنما يصبح حقًا جديرًا باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه .

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى إسلامه .

فلو كان الإسلام ظالمًا بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشد المسلمين ظلمًا لهم وقسوة عليهم . لكنه كان فى الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم مذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه .

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه .

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به إخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه ، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه .

(١) أطلاس : جمع أطلس وهو الثوب الوسخ .

(٢) العافى : طلب المعروف ، والشعث : الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه .

كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، وحن وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ، وقال للبطرك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر ! ثم كتب كتاباً يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها .

وكذلك كان يفعل فى كل موضع صلى فيه من الكنائس التى عاهد النصارى على تركها وتحريم هدمها وسكنائها .

أما عهدهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنه ما كانت .

فكتب لهم العهد الذى قال فيه : « .. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شئ من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وأن يخرجوا منها الروم واللصوص^(١) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم^(٢) فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .. » .

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان . وأنه قد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاية للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفى لهم بعهدهم وينضج^(٣) عنهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك إلى أبى عبيدة كما كتب إلى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت .

(١) اللصوص : اللصوص ، مفردا لصت .

(٢) البيع : جمع بيعة وهى معبد النصارى ، والصلب جمع صليب .

(٣) ينضج عنهم : يدافع عنهم .

وما شكاً إليه مظلوم من أهل الذمة والياً كبير أو صغرى إلا أنصفه منه . بعث زياد ابن حدير الأسدي على عشور^(١) العراق والشام . فمر عليه تغلبى نصراني معه فرس قوموها بعشرين ألفاً . فخيرته أن ينزل عن الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفاً أو يسكها ويعطى الألف ضريبة ، فأعطاه التغلبى ألفاً وأمسك فرسه . ثم مر عليه راجعاً في سنته فطالبه بضريبة أخرى ، فأبى وشكاه إلى عمر وقص عليه قصته ، فما زاد على أن قال له : كفيت ! ثم رجع التغلبى إلى زياد وقد وطن نفسه على أنه يعطيه ألفاً أخرى ، فوجد عمر قد كتب إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل^(٢) .

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم ، وأنهم أوعزوا صدره فقال فيهم يتوعدهم :

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ^(٣) فغيك منى تغلب ابنة وائل
فخشي أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم ، فعزله ، وأمر غيره .

ولعل حاكماً من الحكام لا يرام منه أن يبلغ في البر بمخالفية في الدين مبلغاً أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم ، ولا سيما الحاكم الذي يدعو إلى دين جديد .

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال : ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نأخذله عند الهرم .

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوذين . فمر في أرض دمشق يقوم مجذمين^(٤) من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت .

وإذا أحصيت له في سيرته الطويلة أوامر وخطأ تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر في ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ، وبقراها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب ، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة في حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقاً هم أحرار فيه .

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض

(١) العشور : صرب من الزكاة . (٢) من قابل : أى بعد عام . (٣) المشوذ : العمامة .

(٤) مجذمين : مصابين بالحدام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه إلى تآكل الأعضاء وسقوطها .

الذميّين ، ومنعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين ، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح ، والحذر من الكيد والتجسس والانتقاص .

فأما نهيّه عن استخدام بعض الذميّين فارجع إلى ما قاله في ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحابة . فقال : «إني نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا»^(١) .

وطلب يوما من أبي موسى رجلا ينظر في حساب الحكومة فأتاه بنصراني ، فقال : إني سألتك رجلا أشركه في أمانتي فأتييت بمن يخالف دينه ديني . وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى إلا ذكر بعدها : أنهم أهل رشا ، ولا تحل في دين الله الرشا .

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق ، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى ، فأعتقه وأطلقه وقال له : اذهب حيث شئت ! ..

فلم يكن نهيّه عن استخدام أهل الكتاب في مهام الدولة إلا إثارا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ في الحكومة ، وما نظن أحدا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن يجتنب فيه مثل هذه الآفة ، إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها ، والرغبة في خيرها وخير أهلها ، ولا سيما في زمن كانت الدولة تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان .

وما من أمة في عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة إلا بقيود وفروق متفق عليها : أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن في استخدامهم منفعة عامة .

وهذه هي سياسة عمر في مسألة الوظائف القومية ، بغير إعانات للدولة ولا إعانات للرغبة ، وكفى باتقاء الإعانات أن العبد المملوك يخير في الوظيفة والإسلام فيأبى ، فلا يصيبه من ذلك ضيم ، ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء .

أما نهيّه عن تشبه الذميّين بالمسلمين وكراهته أن يدلوا أزياءهم التي ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميّين يودون التشبه بالمسلمين في الزي والشارة ؟ أكانوا يتشبهون بهم حبا لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا

(١) الرشا : جمع رشوة .

بالإسلام .. أم يتشبهون بهم كيذا لهم ورغبة في التسلل بينهم والإفلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجه الدولة عليهم في تلك العهود والالتزامات ؟ ..

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه ، وبخاصة في الزمن الذي كان المسلمون فيه جميعاً في حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن تبيع أزياء جنودها لمن يشاء .
وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد إلا وقد غدر بدمته وكرر العدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهل خيبر .

ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلاً عن نقضه العهد كما فعل أهل نجران .

فقد صالحهم النبي على أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفراطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفاً فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم فاستحب هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن «دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا»^(١) شاور أصحاب النبي فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم إليه .

ولا يفوتنا في هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التي لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها . فأول الأمرين أن الجزيرة حرم الإسلام الذي كان يحيط به أعداؤه ويتدربون به الدوائر ويشيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم من يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .
وثاني الأمرين أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية في هذه الخطة ، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه ، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره .

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة ، فاشتري بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة ؛ وكتب لهم وصاة قال فيها :

(١) تعشرنا : أى تدعنا تؤدى العشور .

«.. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين .. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض ، فما اعتملوا^(١) من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله .. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا - إلا من صنعهم - البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم» .

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعده بالذمين كافة «أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم^(٢)» .. ودون هذا بالمرحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيطة حرية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وإن عذرها لدون عذر عمر فى خططه ، وإن أسبابها لدون أسبابه فى الإقناع .

* * *

كان مسلما شديدًا فى إسلامه ، فلم تكن شدته فى إسلامه خطرًا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة . وكان جاهليا فأسلم ، فأصبح إسلامه طورا من أطوار التاريخ . ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشقة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طورا من أطواره الكبار .

* * *

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ، ولكن لا ينفعل عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضع القضاء . قال يوما لأبى مريم السلولى قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح ! فقال له أبو مريم : أتمنى لذلك حقا ؟ قال : لا . قال : لا ضير ! إنما يأسى على الحب النساء . وحسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة ييغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق .

(١) اعتمل : اعتمل فلان ، عمل لنفسه وتصرف فى العمل .

(٢) يقاتل من ورائهم : يحميهم .

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث ، فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين .

إلا أننا نسمى عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام .

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح ، وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها ، وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم ، ولم يزل يراجع أبا بكر في ذلك حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي فأمره أن يتبع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والأكتاف والعصب^(١) وصدور الرجال ، فكان ذلك أول الشروع في جمع الكتاب .

هذا إلى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء ، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه وفي ذلك العصر من البداوة البادية ، لأنه التفت إلى مواضع الحليقة

(١) الأكتاف : جمع كتف ، والعصب جمع عسيب وهو جريد الحل ، كانوا ينزعون حوصه ويكتبون في طرفة العريض ، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأضلاع والأكتاف . الخ .

بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك راسخة العمران . وهي قدرة تروعننا وتدهشنا لو شهدناها من ملك ترى على الملك ، وسلفه^(١) على عرشه سمط^(٢) من الملوك . وأولى أن تروعننا وتدهشنا من رجل البادية الذى يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدى إليه .

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملاً يقترب به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد . وكلاهما عمل لا يفتن إليه إلا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها ، وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة ، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن ، وكان أثره فى تدعيم الدولة الأدبية كأثره فى تدعيم دولة الغزوات والفتوح .

وندر فى الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه .. فافتتح تاريخاً ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ، واتخذ لها بيت مال ، ووصل بين أجزائها بالبريد ، وحمل ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شئ فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه ، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء ، فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دستوراً لكل شئ وتركه قائماً على أساس لمن شاء أن يبنى عليه .

وملاك^(٣) النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضم بهم على العمالة فى أطراف الدولة ، تنزيها لأقذارهم وانتفاعاً برأيهم واعتزازاً بتأييدهم له ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب .

وجعل موسم الحج موسماً عاماً للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها ، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يشكهم ، ويفد فيه الرقباء الذين كان ييئهم فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال .. فهى «جمعية عمومية» كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور .

(١) سلفه : تقدمه .

(٢) سمط : خيط تنظم فيه حبات العقد ، والمراد عدد .

(٣) ملاك الأمر : قوامه وأساسه ، يقال : القلب ملاك الجسد .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ، ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل . وإن أضعف الناس رأياً لمن يستضعف فضل الأمير في عمل تولاه لأنه عمله بمشاورة غيره .

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان ، وليس كل إنسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير ، أو الذى يعرف كيف يستشير إذا أراد ، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم في حالة ويرفضها في حالة أخرى . إن المشاورة لفن عسير .

وإن الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه .

وقد كان عمر عبقري هذا الفن الذى لا يجارى . وكان من بدعه المهمة في هذا الفن العسير أنه لم يلتمس رأى عند أهل الحنكة والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير .. فكان كما روى يوسف بن الماجشون : «إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم» ، وإنه لإلهام في فن الاستشارة لا يلهمه إلا صاحب رأى أصيل ، فمن رأى الأصيل أن يخبر^(١) الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين .

انظر إليه كيف يستشير في اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن ، وأنه فن عسير .

قال لأصحابه : دلوني على رجل أستعمله .

فسأله : ما شرطك فيه ؟

قال : «إذا كان في القوم وليس أميرهم ؛ كان كأنه أميرهم ؛ وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم» .

إن الذى يسؤل هكذا ، هو أقدر من الذى يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثي الطريق السديد إلى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذى لا يأمنه ، كما فعل في سماع رأى الهرمزان في أمر

(١) خبر الأمر يحبره من ناب نصر : علمه .

الحرب الفارسية ، لأنه بصير يطلب نورا ، فإن رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق .

ومن اليسير ، إذا تعقنا^(١) مشاورات عمر ، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الإسلامية ، وأن الشورى التى وضع دستورها هى شورى رأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء .

وقد وضع لقواده دستور الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم^(٢) أعدائها ، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده .

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفى ، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه ، وكيف يقدم فى موضع الإقدام ويتريث فى موضع التريث ، وأجمل له ذلك فى قوله : «اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا بل اتقد ، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث^(٣) ، الذى يعرف الفرصة ، ولا يمنعن أن أوامر سليطاً (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب . والسرعة إلى الحرب - إلا عن بيان - ضياع » وزاده تبصرة بالحيلة فقال له : «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية^(٤) : تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه . فانظر كيف تكون ، وأحرز^(٥) لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر - ما يضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكره ، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة » .

فهى المشاورة ، ثم أناة فى الاجتهاد ، إلا أن تجب السرعة ، ببيان وثقة ، فليكن الإسراع . وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظن به الاندفاع ، وينسى من يظن به هذا الظن ، أنه قوى الاندفاع وقوى الضابط فى وقت واحد ، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس وفى كتابه له قيس من هذا المعنى : «إذا انتهيت إلى القادسية ، هو منزل رغب خصيب دونه^(٦) قناطر وأنهار

(١) تعقنا : تتعنا . (٢) تخوم : حدود ، جمع تخم . (٣) المكيث : الذى يتعجل فى الأمر .

(٤) الجبرية : مفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الياء : الكبير مثل الخيروت .

(٥) أحرز : الحرر المكان الحصين ، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر .

(٦) دونه : بينك وبينه .

ممتعة فتكون مسالحك^(١) على أنقابها^(٢) ويكون الناس بين الحجر والمدر^(٣) ، على حافات الحجر ، وحافات المدر ، والجراخ^(٤) بينها ، ثم الزم مكانك ، فلا تبرحه ، فإنك إذا أحسوك أنقصتهم ، ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم ، وحدهم وجدهم^(٥) - فإن أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتبستم لقتاله ، وقويتم الأمانة - رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى^(٦) ، كان الحجر فى أدياركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجراً وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح .

ثم كتب إليه يستوصفه المنازل التى نزل بها ويسأله : «أين بلغك جمعهم ؟ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية» .

وكتب إلى أبى عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه فى ترك حصارها : «.. سرنى ما علمت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التى قربت من أنطاكية فهذا بقس الرأى .. أترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه ؟ .. فما هذا برأى .. يعلو ذكره بما صنع ، ويطمع من لم يطمع ، فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها . فأياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .. وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف^(٧) اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله ، ورغب فى الجهاد فى سبيل الله ، وهم عرب وموال^(٨) ، رجال وفرسان ، والمدد يأتيك متواليًا إن شاء الله تعالى» .

(١) مسالحك : جمع مسلحة على وزن مصلحة ، حد المراقبة على الحدود .

(٢) أنقابها : جمع نقب ، وهو ها الطريق فى الجبل .

(٣) المدر : جمع مدرة وهى القرية والحضر ، وعكسها الوبر أى البادية ، والمراد ، بالحجر من أرض العرب الحلية الوعرة . (٤) الجراخ : جمع أجرج وهو الأرض ذات الخزونة تشاكل الرمل ولا تثبت .

(٥) حدهم وجدهم : يقال «فلان له حد وحده» أى له نأس وقوة .

(٦) الأخرى : يقصد النكسة أو الهزيم !

(٧) مشارف الأرض : أعاليها . (٨) الموالى : يطلق على العتقاء والبصر والخلفاء .

فكان دستورهِ في الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد في تنفيذها إلى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتياداً على القائد وحده ، إذ ليس القائد بالمستول الوحيد عن المصير .

فإذا رأى القائد رأياً وخالفه هو في رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه إليه ، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانه عليه .

ولقد كان إلى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغفل يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه ، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه ، وأن يجرى في إدارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه : «أت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا ، وادخل معهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم ، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم» .

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدائها .

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة .

وهو بعد هذا لا يعنى نفسه من التبعة ، ولا يعنى القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة ، ولا يغفل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه . ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في رأى ليتفق الرأىان المختلفان . فإذا رجع القائد إلى الحصار الذى أزمع أن يتركه رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملاً يخالف الصواب في تقديره .

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها في حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان ، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور في التواريخ والأساطير يقول إن عمر هو هازمه في الميدان ، و «أنه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل ! أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ...» .

وربما أخطأ القائد الذى يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المستول عن اختياره . غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفى منها من جانب آخر أو جوانب عدة ،

كما حدث في وقعة الجسر التي قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة في مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه في كل مسألة من هذا القبيل ، وفي هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبي عبيد إنصافاً له حجته الراجعة فيه ، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الأولى التي رفعت شأنه بين القواد ، فلما أخطأ وجاءه الخطأ من مخالفة عمر في وصاياه ، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور ، ولم يكن على عمر لوم في تنصير عن التنبيه والتحذير .

* * *

وقبل أن يضع دستوراً للدولة وضع دستوراً لنفسه قوامه أن الحكم محنة^(١) للحاكم ومحنة للمحكومين ، و «أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية^(٢) فيها ، ولين لا وهن فيه^(٣) ... وأن الخليفة مسئول عن ولاته واحداً واحداً في كل كبيرة وصغيرة ، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار .

قال يوما لمن حوله : أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ! قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟ .

وعهوده على نفسه هي خير العهود التي تؤخذ على ولاية الأمر وأبينها للحدود القائمة بين الراعي والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم إلى الحكام خلافاً لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكماً في كل شيء . فكان يقول لهم : «أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ..» .

وجمع صلاح الأمر^(٤) في ثلاث : «أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله» ، وصلاح المال في ثلاث : «أن يؤخذ من حق ، ويعطى في حق ، ويمنع من باطل» .

(١) محنة . احتار ، ومحنة من باب قطع وامتحه اختبره ، والاسم المحنة . ولذا سميت المناصب بالحق لأنها اختبار للإنسان . (٢) جبرية : حبروت وطعيا . (٣) وهن : ضعف . (٤) أى أمر الدولة .

وعاهد الناس فقال : «لکم علی ألا أجتى شیئاً من خراجکم ولا ما أفاء الله علیکم إلا من وجهه ، ولکم علی إذا وقع فی یدی ألا ینخرج منی إلا فی حقه ، ولکم علی أن أزیّد عطایاکم وأرزاقکم إن شاء الله وأسد ثغورکم»^(١) ، ولکم علی ألا ألقیکم فی المهالك ولا أجمركم - أى أحبسکم - فی ثغورکم ، وإذا غبت فی البعوث فأنا أبو العیال حتی ترجعوا إلیهم ، فاتقوا الله عباد الله ، وأعینونی علی أنفسکم بكفها عنی ، وأعینونی علی نفسی بالأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وإحضاری النصیحة فیما ولانی الله من أمرکم» .

ومن أوائل عهوده فی بیان الحق الذی یرشح الحاکم لولاية الحکم : «أیها الناس : إنی قد ولیت علیکم ولولا رجاء أن أكون خیرکم لکم ، وأقواکم علیکم ، وأشدکم استضلاعاً بما ینوب من مهم أمورکم ما ولیت ذلك منکم» .
فأحق الناس بالحکم أقدرهم علی البر والحزم والنهوض بالأعباء ، ولیس له فی غیر ذلك حق یرشحه للحکومة .

ومن أوائل خطبه بعد تولیه الخلافة : «إن الله ابتلاکم بی وابتلانی بکم ، وأبقانی فیکم بعد صاحبی ، فلا والله لا یحضرنی شیء من أمرکم فیلیه أحد دونی ، ولا یتغیب عنی قالو^(٢)» فیه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن إلیهم ولئن أساءوا لأنکلن بهم» .

فهو یعاهدهم أن یلی الأمر بنفسه فی کل ما حضره ، وألا یعهد فیه إلی غیره إلا إذا غاب عنه ، ثم لا یكون وكلاؤه فیه إلا من أهل الصدق والأمانة ، ثم هو لا یدعهم وشأنهم بعد ذلك بل یراقبهم ویتبع أعمالهم ، فیحسن إلی من أحسن وینکل بمن أساء . وقد کان یقول ویعنی ما یقول ویعمل بما یقول .

وصارح القوم فیما لا یخصی من الخطب والأحادیث أن له علیهم حق الطاعة فیما أمر الله فلا طاعة لمخلوق فی معصية الخالق ، وأن لهم علیه حق النصیحة ولو آذوه فیه . ومن ذلك الروایة المشهورة التی سأل الناس فیها أن یدلوه علی عوجه فقال له

(١) الثغور : جمع ثغر وهو من البلاد الموضع الذی یخاف منه هجوم العدو ، ویقصد بسد الثغور الدفاع .
(٢) قالو : ألا یألو : أى قصر یقصر من باب عدا . قالو ، أى أقصر ، ومنه : لا آلک نصحا أى لا أقصر فی نصحتک ولا أدخر جهداً فیه .

أحدهم : «والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» ، فحمد الله أن جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ولم يكن يبيع من مال المسلمين أجراً لعمله إلا ما يقيم أوده^(١) وأود أهله عند الحاجة إليه ، فإن رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه : «.. ألا وإني أنزلت نفسى من مال الله ، بمنزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، تقرر^(٢) البيمة الأعرايية : القضم لا الخضم» ، أى كما تأكل ماشية البادية قضمًا بأطراف أسنانها لا مضغًا وطحنًا بأضراسها .

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال : «إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعتمر^(٣) ، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . ثم أنا بعد رجل من المسلمين» .

وقد كان أسخى من ذاك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال ، فقد ر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يزداد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله ، ونصف شاة ونصف جريب^(٤) من الدقيق .

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه الناس فى الكوفة وقيامه على بيت المال فيها ، لعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهماً وربع شاة فى اليوم ، مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم .. وهكذا على حسب الولايات والنفقات .

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعضارهم فيقبلها أو يغضى عنها توقف صلاح الولاية على ذلك .

قدم إلى الشام راكبًا على حمار فتلقيه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ! فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

(١) أود : أود من باب طرب عوج ، فالأود العوج ، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية .

(٢) قزم : أى أكل أكلا صعيفاً ، والمراد أكل أحف أكل من أحسن طعام .

(٣) الحج معروف ، والعمرة : الحج الأصغر ، وهى مأخوذة من الاعتار أى الزيادة .

(٤) الجريب : مكىال كان يستخدم ، يمكن أن يقدر بما يعادل ٣٦٠ رطلا .

قال : نعم .

قال : مع شدة احتجاجك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم .

قال : ولم يحك !

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة^(١) جرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استنقصتنى نقصت ، وإن استزدتنى زدت ، وإن استوقفتنى وقفت !

فقال عمر : ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه . إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب^(٢) لا آمرك ولا أنهاك .

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تميز بالواجب والكفاءة وليست تميزا بالوجهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : «افتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً» .

وشغله كل الشغل ، وأن تخضع الرعية لواليتها ، رغبة فى حكمه ، واطمئناناً إلى عدله ، فكان يقول للوالى : «اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس» ، ويقول للرعية : «إنى لم أبعث إليكم الولاة ليضربوا أبشاركم^(٣) ، ويأخذوا أموالكم ولكن ليعلموكم ويخدموكم» .

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم . فلما رأى أقواماً ذميين ينقضون العهد ويثرون على الدولة طلب من صلحاء البصرة وفدًا فيهم الأحنف ابن قيس وهو مصدق عنده ، فسأله : «إنك عندى مصدق ، وقد رأيتك رجلاً فأخبرنى المظلومة^(٤) نفر أهل الذمة أم لغير ذلك ؟» .

فقال الأحنف : «لا بل لغير مظلومة ، والناس على ما تحب» .

فهدأ باله وقال : «فنعنم^(٥) إذا ... انصرفوا إلى رحالكم» .

وربما ذهب فى إرضاء الرعية، مدهباً لم يحلم به الغلاة من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور .

(١) البذلة : الابتداء وترك الكلفة . (٢) أريب : دكى . (٣) أبشاركم : جلودكم .

(٤) المظلومة : مفتاح الميم وكسر اللام : اسمٌ ما تطله عند الظالم كالظلامة . (٥) أى : لا صبر إذن .

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص فائده المظفر فى حروب فارس ، وقريب رسول الله ﷺ ، والرجل الذى جعله عمر واحداً من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فنارت به طائفة من أتباعه وشكته إلى عمر وجيوش الفرس تتجمع للغزو والتأثر . فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها . فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية . وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، إلا من شكوه فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : «إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السرية» .

فعاد محمد بن مسلمة إلى المدينة وسعد معه ، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة ، إلا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة ، فعزله وقال لشاكيه : «إن الدليل على ماعدكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر ، وقد استعد لكم من استعد ، وإيم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزل بكم» ، وقال لسعد يومئذ مبرئاً له من تهمة خصومه : «هكذا الظن بك يا أبا إسحق ! ولولا الاحتياط لكان سيلهم يئناً» . ثم أبى أن يفارق الدنيا وفى ذمته شهادة لسعد يعلنها للألمسلمين ، فلما حضرته الوفاة وسأله أن يستخلف أبى أن يخلف أحداً من أهله ، وسمى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً «لأنهم نفر توفى رسول الله وهو عنهم راض . فأبهم استخلف فهو الخليفة» .. ثم قال : فإن أصابت سعداً فذاك ، وإلا فأبهم استخلف فليستعن به ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق ، والرعاية لجميع الذم من حاكمين ، ومحكومين ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية ، إلا أن عمر فى حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين . فغبن وال أو قائد أهون من غبن أمة أو جيش .. ومن أقواله فى ذلك «هان شئ أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير» .

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وإنما هو سبب من الأسباب التى ترجع إلى سلامة الدولة أو ما نسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا . وهذه أسباب لا يصح أن يعفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة المقتدرين المحبوبين .

فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض ، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير .

فقد تزين له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر ويتحلل لذلك ماشاء من المعاذير . فإن فاته الاستقلال ورئيسه قوى مهيب لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة ، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تؤذن بمثل هذا التقلقل ، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يلج^(١) منها بعد طول تربص واستعداد .

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الإسكندر المقدونى وتواريخ العتاة من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الأمثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من الشرقيين والغربيين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعاً وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم ؛ أو لكيلا تفتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم ، وكان له سبب آخر وجيه بالغ فى الوجهة يدعوه إلى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد وتم لهم القدرة ويحوطهم الحب والولاء فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض^(٢) إلا الفرصة السانحة ، وهى أقرب شئ سنوحاً فى إبان التأسيس والانتقال .

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما فى الشؤون المالية ، لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض ، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه .

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما يدخل فى عداد الزيادة المعقولة ، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً .

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليلبغوه ما ظهر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة .

(٢) المراد الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية .

(١) يلج : مضارع ولج أى دخل .

ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها ، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون .

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهراً إذا قفلوا ^(١) إليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ما حملوه في عودتهم ويتصل نبؤه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاق الطريق .

ومنها أنه كان يستقدمهم في كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى في أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير في البلاد «فيقيم شهرين شهرين في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ، فإنه ليعلم أن للناس حوائج تقطع عنه ، أما هم فلا يصلون إليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليه» .

وكان لا يكتفى بوسائله تلك إذا استراب ، فيعمد إلى الحيلة للكشف عن الخبايا التي تريبه . ومن ذلك أنه سمع بعودة أبي سفيان من عند ولده معاوية وإلى الشام ، فوقع في نفسه أن ولده قد زوده في عودته بمال . وجاءه أبو سفيان مسلماً فقال له : أجزنا ^(٢) يا أبا سفيان ! قال : ما أصبنا شيئاً فنجزك ! فمد يده إلى خاتم في يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجته ، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظري الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما . فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال .

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف في بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أرى ^(٣) على كسبه المعقول ، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال ، وهذا عدا ما يجزيه به من عزل أو عقاب .

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها فمن ضرب ضرب ، ومن غصب رد ما غصب ! ومن اعتدى قبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب .

(١) قفلوا : رجعوا

(٢) أجزنا : المقصود أعطنا .

(٣) أرى : زاد .

وقد يأخذ الوالى أحياناً بوزر^(١) ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيعون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها .

جاء مصرى فشكا إليه واليها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمناً ، ومازال محبوساً حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة إذا به فى خلالها قد استقدم عمراً وابنه من مصر فقدا ومثلاً^(٢) فى مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونك^(٣) الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين .

«فضربه حتى أثخنه»^(٤) ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال : أجلها^(٥) على صلعة عمرو ! فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه ... قال عمرو فرعاً : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، وقال المصرى معتذراً : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . والتفت إلى عمرو مغضباً يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله : «أبا عمرو ! متى تعبدتم»^(٦) الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟»

* * *

ومن هذا العدل فى شئون الولاية نستطيع أن نفهم دستورَه فى شئون القضاء ، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق . إلا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمان يليه ، مهما تختلف الأقوام والأوقات .

أنشأ وظائف القضاء وتخبر لها العدول^(٧) الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا إلى

(٢) مثلاً : مثل بين يديه انتصب قائماً ، وبابه دخل .

(١) الوزر : الذب

(٤) أثخنه : أضعفه وأوجعه وأوهه . (٥) أجلها : أدرها .

(٣) دونك : اسم فعل معنى حد

(٧) العدول : جمع عدل ، وهو العادل

(٦) تعبدتم : استعتمدتم

سن الشريعة التى يحكمون بها فإنها ماثلة فى الكتاب والسنة ، ولكنه كان فى حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر ، فأحسن التعليم .

* * *

كان يكتب لأحدهم : «إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يفتنك عنه الرجال ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت : إن شئت أن تتجهد وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر ^(١) . ولا أرى التأخير إلا خيراً لك » .

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه ، فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية للزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية لسنة أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه ، واشتركت امرأة وصاحبها فى قتل رجل فتخرج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحماً من بعير واحد ، فأخذ بفتواه .

* * *

ومن وصاياه للقاضى : «آس بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ^(٢) ولا يئأس ضعيف من عدلك ، والبيئة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً وأحل حراماً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى ^(٣) فى الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج ^(٤) فى صدرك ما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى ﷺ ، واعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم أعمد ^(٥) إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بيّنة أمدأ ينتهى إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر المسلمون عدول ^(٦) بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو محرباً عليه شهادة زور ،

(١) تقدم . تتقدم ثم وتأخره : أى تتأخر . (٢) حيفك : حيلتك . (٣) التماذى : الاستمرار والإصرار .

(٤) يتلجلج : يتردد ويتحير . (٥) اعمد . أقصد . (٦) عدول : نقل شهادتهم .

أو ظنينا ^(١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ ^(٢) عنكم بالشبهات . ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس .

ومن وصاياه لمن يلون الحكم : الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك : إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبيئة العادلة أو البين القاطعة .

وأذن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه ، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به ، وآس بين الناس في لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستين لك فصل القضاء .

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام ، وهى فيما نراه أحكم وصاياه ، وأقربها أن يتبعها سواه .

ولذلك سبب لا يعسر تعليله . فقد كان عمر في الجاهلية حكماً من قبيلة محكمين ، أو سفيراً يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء ، فهو في هذه الصناعة عريق . إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها . وإنما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا في وصاياه لقضاته . فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضياً بخير مما أوصى ، وما من عقدة قضائية تأتى من قبل القضاة أو من قبل المتقاضين إلا وهى ملحوظة في كلامه ، وهاتان هما الخصلتان الباديتان في دستور القضاء كما أملاه .

ولابد أن يلفت النظر في سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ الواجب حيث وجب ، وإن اختلف الواجبان .

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويمعن في تحريها ولا يكتفى من الناس بالظواهر . وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنفضها البيئة ^(٣) القاطعة ، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول : «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم

(١) ظنينا : منها . (٢) درأ : منع العقوبة . (٣) البيئة : الدليل والبرهان .

بالسرائر ، فإن من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريره حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً ، أو يقول :

«إنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي .
وذهب السبي ﷺ ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهر لنا حيراً وأثبتنا عليه .
ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه» .

بل كان له في الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه في القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه ، وينهى أن تظن بكلمة شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وهذه في الظاهر نقائص ، وفي الحقيقة واجبات متعددة كل منها في موضع لازم .
فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولي مسئول لا تنصلح الأحوال بغيره ، وفي الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس .

والأخذ بالبينية دون الظاهر في شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو في أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة في الحكم بغير برهان .

وفي الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمان ، ومنها الأسرار .

والترفة بين الواجبات المختلفة هي دليل البصيرة في عرفان كل واجب منها ، وأنها تصدر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة .

* * *

وأنشئت في عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والخاصية التي لم يكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة ، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد ...

فلو وجد منهم من يفى^(١) لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة في قيامهم بها أعظم من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللائق للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسي في مصلحة فارس والسوري في مصلحة سورية والمصري في مصلحة مصر أخرى^(٢) أن يعصمهم إن كان بهم عاصم وإلا فلا تثريب^(٣) .

ووضع عمر نظاماً لتحصيل الجزية وتصرف في وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بدلاً عنها ضعف صدقة المسلم ، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزمعوا للحاق بأرض الروم .

وكان له نظام اقتصادي يوافق مصلحة الدولة في عهده ، فكان يحض على التجارة ويوصي القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك . ولكنه أبقى الأرض لأبنائها في البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند في الجيش القائم . وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتصم^(٤) الجند الإسلامي من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة^(٥) والاشتغال بالثراء والحطام . وربما أغضى^(٦) عن كثير في سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصصح عن أهل السواد «العراق» ليأمنوا البقاء فيه ، مع أنهم حثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين في أثناء القتال .

ويلوح من كلامه في أخريات أيامه أنه كان على نية النظر في تصحيح النظام الاقتصادي وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذي وجدها عليه ، فقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت»^(٧) لأخذت فضول^(٨) أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء .

ولم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه . فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً^(٩)

(١) يفى : يكفى ويصلح . (٢) أخرى : أجدر . (٣) تثريب : لوم وندب .

(٤) يعتصم : يمتنع ويتحصن . (٥) الدعة : الخفض والرفاقية . (٦) أغضى : أعصم عنه وصفح .

(٧) المراد لو رجع من عمرى ما فات . (٨) فضول : مازاد عن الحاجة ، جمع فصل .

(٩) أبداً : دائماً .

بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية . فكتب إلى أبي موسى الأشعري : «بلغني أنك تأذن للناس جمًّا غفيراً^(١) فإذا جاءك كتابي هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة » ، ولكنه لما رأى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم في مكة غضب وقال لساداتهم مؤنباً : ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة ، في جفان واحد .

فالمساواة في أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبة : يا معشر الفقراء ، ارفعوا رؤوسكم فقد وضع الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالاً^(٢) على المسلمين . وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً «أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء» .

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما اتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجوه البر والإصلاح .

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسساً لديوان الوقف الخيري على الوجه الذي نعهد له الآن ، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضاً بخير فاستشار النبي عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ، فجعلها عمر صدقة لاتباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح^(٣) على من وليها يأكل بالمعروف ، ويطعم صديقاً فقيراً منها .

* * *

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها في وقته فلم تجده مسألة منها دون ماتحتاج إليه من إصابة الرأي وحسن الروية . فكانت نصائحه في تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعي وأليقها بالأمير .

(١) جما غفيرا : حينا ، الشريف مع الوضع في كثرة .

(٢) لا تكونوا عيالاً على المسلمين : لا تعتمدوا على أن يعرفكم .

(٣) لا جناح : لا إثم ولا حرج ولا ذنب .

شاهد في الجند هزلاً وتغير ألوان فسأل قائدهم سعداً : ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فأجابه : إنها وخومة ^(١) المدائن ودجلة ، فكتب إليه : «إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان ، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا ^(٢) منزلاً برياً بحرياً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر» ، وأمر أن تبلغ مناهج ^(٣) المدينة أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شيء ، وألا يرتفع بناء الدور .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط .

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذى يسكنون إليه بعد الغزو في حدود فارس ، فكتب إلى عتبة بن غزوان أن «ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعى والماء» ، ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه ، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين .

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجاً بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولاً يفرغ فيه من حفره وإعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلزم ^(٤) ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن ، وسمى خليج أمير المؤمنين ، ولم يزل مفتوحاً حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء .

فسياسته العمرية وافية بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئاً لا يوافقهم كالحذر من ارتفاع الدور والزهد في تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه في سياسة التعمير أن يحمى الدولة في نشأتها من الترف والبذخ ، وأن يحول بين الجند وبين الاستئمان ^(٥) إلى متاع القصور المشيدة ، والصروح الممردة ، وما فيها من بواعث الوهن والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلاً على ابتداء الضعف وعفاء ^(٦) العقيدة ، ويقول شينجلر أحد هؤلاء الفلاسفة : إن الأمم في نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريق العقيدة وقوة النفس ، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وخلفها

(١) وخومة : فساد الجو والبيئة . (٢) فليرتادا : فليختارا بعد البحث . (٣) مناهج : طرق .

(٤) القلزم : مدينة السويس الحالية ، وكان البحر الأحمر قديماً يسمى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة .

(٥) الاستئمان : الاطمئنان والراحة والرضا . (٦) عفاء : انتهاء وضاء .

العظمة التي تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والأخلاق .

وعمر على كلتا الحالتين ، لم يتعد طبائع الأشياء ، ولم يأخذ في زمانه بغير الصالح من الآراء .

وقصارى القول ، أن هذا رجل لم تواجهه في ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته أو هبة ودراية أجل مما كان له من هبة ودراية ، فإذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها ، والحيلة الصالحة لتدبيرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس ^(١) بهذه الأمور .

وكان اضطلاعه ^(٢) بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمير والتنظيم . ففي السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ إن الوحش كانت تأوى فيه إلى الإنس ، وإن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبحها .

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خطب ، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت ، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين إلى حيث يعثر بالجياح والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى ^(٣) على نفسه لا يأكلن طعاماً أنقى من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت ، ونظر فى كل شئ حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله إليهم مع عماله ... فقال للزبير بن العوام : « اخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجداً ، فاحمل إلئى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلئى ، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببيعير بما عليه ، ومرهم فليلبسوا كساءين ، ولينحروا البعير فليحملوا شحمه ، وليقددوا لحمه ، وليحتزوا ^(٤) جلده ، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتهم الله برق » .

(١) يتمرس : يتدرب ويتمرن ويعالج . (٢) اضطلاعه : احتاله وقيامه .

(٣) آلى : حلف . (٤) حز الجلد واحتزه : قطعه .

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا «مؤسس الدولة الملهم» في هذا الرجل العظيم .

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصورنا إياه ، وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وإنجاز وخلق وهيبة . فكم بين المدينة وتلك الأطراف في زمن أسرع وسائله بعير سريع ! وكم عمل عمر للملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح ، وكل أمة تحكم ، وكل عارض يطرأ على غير رقبه^(١) ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس سهل ، واختيار القواد على حسب ما يندبون له وليس بسهل ، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم^(٢) ليستقصي خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل ، وإنشاء المدن والعمائر في مواضعها ، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها ، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكائياتهم ولو جاءت في غير أوانها ، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها ، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة بغير ما شكاه ، وخدمة الناس في دينهم وخلقهم كخدمته إياهم في دنياهم ودولتهم ، وتجدد هذه المتاعب يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وعاماً بعد عام ، وهي شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضاً إلى أيام .

وجليل بعض هذا لغاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير ، لكنه كما تعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب^(٣) بعينه ، ولا يدع أحداً من خدام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له في مثل ما يتولاه .

وأكبر ما يستحق الإكبار في هذا الرجل الكبير أنه كان قادراً على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار ، ولكنه راض^(٤) القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار . فليس الفتح شهوة عنده ولا المجد الحرى لبانة^(٥) من لباناته ، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى في ذلك داعياً إلى العجلة بالفتح ، كما كان يرى فيه دواعي للتبصر والأناة ، حتى لا يسفك دم في غير موجب ولا تعتسف خطة بغير روية .

(١) رقة : ترقب وانتظار .

(٢) المداورة : المحاربة والافتتان في أساليب القتال .

(٣) يتعقب : يتبع ويفحص .

(٤) راض : روض وذلل .

(٥) لبانة : حاجة ورغبة

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام في عقر داره . ولولا أن الدول العظمى التي كانت تحدد بجزيرة العرب تحفرت^(١) للبطش بها وقمع دعوتها في مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى في مصالوة أولئك الأعداء .

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم^(٢) الجزيرة . وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا نحدثنا أن غسان^(٣) تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال : أئتم هو ؟ ففزعت فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم ... قلت ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول ... طلق النبي ﷺ نساءه ! » .

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار . أما فارس فقد بلغ بطغيانها أن عاھلها غضب من دعوته إلى الإسلام فأوفد إلى الحجاز رسولا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبي العربي حيا أو ميتا !! ولولا أنه مات قبل إنجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن في بلاده لوطقت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب للدفاع . وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسي حتى سكنوا إلى ذلك ، وود عمر بن الخطاب «لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم» ، ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا ، فتجدد القتال .

وقد طال تردد عمر في فتح مصر ، ولم ينبعث إلى غزوها حباً ولهجاً^(٤) بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم في بيت المقدس قد فر منها إلى مصر ليحشد فيها الجنود ويتأهب للكر على الشام لطال ترده في الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد إشخاصه إليها ، ونهاه عن الإيغال في المغرب بعد فتحها ، لأن السطوة - وهو مقتدر عليها - لم تكن تزدهيه^(٥) ولا تغويه ، ولأن الضن بالأرواح أغلب في طبعه من الشغف بالفتوح ، «أن رجلا من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار !» .

(٢) غسان : عرب الشام .

(٣) تخوم : حدود .

(٤) تحفرت : استعدت وتوثبت .

(٥) تزدهيه : تستهويه وتستحقه .

(٤) لهجا . اللهج بالشئ الولوع به .

فلا يخطيء القاتل الذى يقول إن الأناة فى السطوة أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع ، وإن دلالاته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالماثر . لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون لزاماً نعمة من نعم الأثرة والأنانية ، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء . وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين ، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية ، أما الدين فلا يهدمه شئ كما تهدمه قوة الطغيان .

إن البأس الذى رزقته نفس عمر لحظ عظيم . ولكنه لو كان فى يدى غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو فى يدها ، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزل عن الإيمان حتى فى أيام الجاهلية . فلو لم يقع فى روع^(١) عمر أن محمداً أهان قريشاً وانتقص دينها لما تصدى له بأذى ، ولولا حرمة الإيمان الجاهلى عنده لما ثار على إيمان محمد وصحبه .

وغاية ما هنالك أنه فرق بين إيمان وإيمان ، ففى الجاهلية كان إيمانه مضللاً فعقم ولم يأت بطائل ، وفى الإسلام كان إيمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات .

* * *

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح فى صدر الإسلام ينبغى أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام ، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان^(٢) ، فكان مؤسساً لها قبل أن يلى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان من يوم إسلامه أخذاً فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان ، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد ، حتى تثوب إليه كرة أخرى .

(١) الروح بالضم : القلب والعقل والبال .

(٢) الصولجان : عصا الملك ، فارسى معرب ، إذ لا يجتمع فى كلمة عربية صاد وحيه ، الجمع الصولجاة والماذ أنه لم يؤسسها على الطغيان والأبهة ، وغطسة الملوك .

عمر والحكومة العصرية

من الحقائق التى لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولادة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا ، وأتينا مطالبون بأن نفهمهم فى زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زماننا ، وأن الرجل الذى يصنع فى عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التى يقتدى بها أبناء كل جيل ، ولا حاجة به إلى اقتداء بنا ، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا .

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادئ التى تقوم عليها ، وأن المبادئ التى تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الإنسانى الذى ينبغى أن يعمها ويتخللها ، لأن المبدأ يعينه أن يخلو من الروح الإنسانى ، ولا يعيب الروح الإنسانى أن يخالف المبدأ فى بعض الأحيان .. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية ولكن العدل والحرية هما الروح الإنسانى المقدم على المبدأ وعلى الشكل معاً ، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضرنا إذا وجدنا العدل والحرية. أما فقدان العدل والحرية فهو الذى يضر ولو توافرت المبادئ والأشكال .

فإذا عرفنا العدل بروحه ولبابه فلا ضير عليه أن تنكره مبادئ الثورة الفرنسية أو مبادئ الوثيقة الكبرى فى البلاد الإنجليزية ، أو المبادئ الدستور الأمريكى فى أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأ من المبادئ التى لا تنى تتجدد وتتغير كائناً ما كان .

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة : ماذا كان هذا العظيم صانعاً لو نشأ فى القرن الأول للهجرة مثلاً أو القرن الأول للميلاد ؟ أكان يصنع فيه ما هو «عصرى» فى زماننا ، أو يصنع فيه ما هو عصرى فى ذلك الزمان ؟ فمما لا مرأى فيه أنه يخالف عمله فى زماننا ولا يخالف عمله فى زمانه الذى نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق ، بل اللوم علينا نحن إذ نتنظر مالا ينتظر ، ونقيس على غير قياس .

وإلى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور ! وأتينا

لو ملكنا تبديله في كثير من الأمور لبدلناه ، وأنا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه ، وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصور الأخرى إنما هو فرق الألفة والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة في أنظارنا ، وكثيراً ما يكون الاستغراب عريضاً سخيلاً متعلقاً بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء .

أذكر من الصور التي رأيته في الصحف الأوربية ولا أنساها - صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات في أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها . عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك في الطريق ؟

فإذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر في القبة الطويلة وكسوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوباترة في زى الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميراً من أمراء هذا الزمن وحكيماً من حكمائه على نمط التماثيل التي حفظت لقيصرة الرومان وحكماء اليونان . فإذا بك تستغرب ما تألف وتألف ما تستغرب ... وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذي يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى ، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذي مثله لك الصورة في زى الأقدمين المخالفين لك في العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر إلى الأشياء .

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة أن تعلمنا الكثير ، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير .

ونحن - إذ ننظر إلى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها إلى نظام الحكم في زماننا - واجدون فيها كثيراً من المستغربات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى . ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تزول الغرابة ونرى في مكانها الحق الخالد الذي تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى في مكانها أحياناً ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى يمبأىء هذا العصر الأخير .

خذ مثلاً أنه - وهو أقدر المالكين في عصره - كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهناً إبل الصدقة - أى يداوئها بالقطران - ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع ، وتعرض له المخاضة^(١) وهو داخل إلى الشام فينزل عن بعيره

(١) المخاضة : موضع الماء بجورة الناس مشاة وركبانا .

ويخلع خفيه ويخوض الماء ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما في المأكل والمركب والكساء .

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمات^(١) والشارة ، لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور .

ولكن هذه وجهتنا نحن في هذا ، فما هي وجهة عمر فيه ؟
وهذه حاجتنا نحن فيما ارتسمنا ، فما هي حجة عمر فيما ارتسم ؟

إننا إذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والهجتين ألفيناه في غنى عن وجهتنا وحجتنا وأنه كان يصل إلى الغاية التي نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذي توخيناها فكان يعيش عيشة الفقراء وأمه وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان في القصور .

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس ، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة ، ثم لا غضاضة فيها على السلطان .

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال . فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه في قبولها ، ولما قسم الولايات جعل كل وال كفاء^(٢) عمله من أجر وطعام مكفولا له مع عطائه الذي يعطاه كسائر المسلمين . وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصل إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق . أمام المهابة فمن افتقر من الولاة إلى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به في خصاصته^(٣) وشظفه ، فله من ذاك ما تقضى به مصلحة الدولة حيث كان .

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى «الواجب الحكومي» على الوجه الأقوم ، فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم .

فإذا بقي أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هي الدلالة التي

(١) السمات : الهيئة . (٢) كفاء عمله : أى ما يكافئه عمله وبجاريه . (٣) الخصاصة : الفقر .

تدل عليها ؟ هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب ؟ هل هو أدنى إلى النقص أو أدنى إلى الرجحان ؟

إن أناساً يشددون على أنفسهم عن كرازة^(١) في الطبع وضيق في الحظيرة^(٢) وعجز عن ملابسة الدنيا ، وهذه نقائص تعاب في مقياس الفكر والأخلاق .

ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذي يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا ؟

أعجل الناس بالاتهم لا يتم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه ...

وإنما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذي ألزمه حياة الشظف إنما هو خلق قوى يروض صاحبه على ما يريد ، وليس بخلق ضعيف يجفل من التصرف والتكليف إجمال العجز والرغبة والوسواس .

وفي «طبيعة الجندي» التي قدمنا الكلام فيها التفسير لنظراته في حساب نفسه ، وفي الموقف الذي اختار أن يقفه بين يدي الله . فهو يعلم أن الله شديد الحساب وأن الله رحيم ، ولكن الجندي القوى إذا وقف بين يدي مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب في أدق تفاصيله ، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة . فإن جاءه الصفع من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرم لطبيعته الحادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص في إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران .

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سبباً من أسباب هذا الشظف الذي عاش عليه بعد النبي وخليفته الأول ، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيراً مما عاشا ، وأن يستريح - وقد صار الأمر إليه - حظاً لم يستريحاه ، وكثيراً ما توسل إليه خاصته أن يشفق على نفسه ، وأقنعوه بما علموا أنه أدنى إلى إقناعه ، وهو أن يتوسع في العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق ، فكان يقول لهم : «قد علمت نصحكم . ولكني تركت صاحبي على جادة^(٣) ، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل^(٤)» ، وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها :

(١) الكرازة : الانقباض ، والمراد التزمت والحمود .

(٢) ضيق الحظيرة : الحظيرة مأوى الماشية ، والمراد «ضيق الأفق» .

(٣) الجادة : وسط الطريق والمقصود طريق الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر . (٤) المنزل : المنزل ومكانة

كم كان نصيب النبي من هذا أو من ذاك ، وأنت تعرفين نصيبه ؟
فيكون السؤال هو الجواب .

ثم كانت رغبته في إقامة الحججة على ولاته وعماله سبباً آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل . فقد يستحى أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته قانع لا يطمع في أكثر من الكفاف .

وما كان عمر بالذى يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبهة والوجاهة» وهو الذى يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنياً عنها إثارة لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة في حقيقتها . فكان يقول : «المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ومروءة باطنة ، فالمروءة الظاهرة الرياش ، والمروءة الباطنة العفاف» .

فهو في جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل ، وتستسهل الجدل الذى يصعب على غيرها . ففيها رجحان يكبره العقل والخلق ، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق .

إنما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه في غير بخس ولا حرج ، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدراً الشبهة^(١) ويقتدى بصاحبيه ، ويترك القدوة المثل لمن يليه ، فلا سبيل عليه لباحث في نظم الحكم ولا لباحث في معاني الأخلاق . على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر وهى تهلل للملوكة وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته في بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهى الأوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها في المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك في أوقات المجاعات والحروب وشح المثونة على الإجمال .

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون إلا ما تأكله شعوبهم ، وأنهم لا يرون لهم عزة في الترف الذى يعز على رعيتهم^(٢) ، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط^(٣) . وعلمتهم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الإنسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة .

(١) يدراً الشبهة : يدفعها ويعلمها .

(٢) يعز على رعيتهم : يصعب عليهم تحقيقه .

(٣) عام القحط أو عام المجاعة ، وقد سقت الإثارة إليه .

وشئ آخر يستغربه العصريون في نظام حكومة عمر وإن كانوا يطمنون مثله لو استطاعوه، ونعني به طريقته في محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة . فكان يجزى الوالى جزء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه ، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه إن أساءوا وهم مستطيلون^(١) بما للولاية من حول وجاه . وكان يحصى أموال الولاة ثم يستصفى ما زاد عليها كلما فشت^(٢) لهم فاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها . وفى هذا ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألونه فى طرائق الحكومات العصرية .

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟ بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه^(٣) .

أما أنه حسن فلا شك فى حسنه ولا فى أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية ؛ لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته إلا بإذن منها ! وقد تحميه مرة أخرى بالإحالة إلى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصة بمناقشته فيه ، وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده ما يهدد مراكز الحكام ، ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام .

أما الطريقة العصرية فى ضمان أمانة الحكام فهى أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما إليها ، ثم هى لا تأخذ منهم درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضيايع والقصور والأموال . فمن استغرب الطرائق العمرية فى هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وأن المألوف هو المعيب إن قصر عن الغرض المطلوب .

(١) مستطيلون : أى معززون سلطانتهم وحاجهم

(٢) فشت لهم فاشية من النعمة : ذاعت وانتشرت ، والفاشية كل شئ منتشر من المأل كالعزم والإبل وغيرها .

(٣) حاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه عما تستطيع من وسائل . وقانون «الكسب غير المشروع» ضرب من هذا الصنيع

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين ،
وقل أن ينفذ إلى ما وراء القشور . وهذه بعض الشواهد التي تقرب أسباب النظر إلى
حقيقة هذا الاختلاق .

مر عمر في سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضاً في طريق ضيق فخفقه بالدرة
وقال له : «أمط عن الطريق يا ابن سلمة !»^(١) .

ثم دار الحول^(٢) ولقيه في السوق فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ قال : نعم يا أمير
المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة !
استعن بهذه ، واعلم أنها الخفقة التي خفقتك بها عام أول ! .. قال إياس : يا أمير
المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتني . فأجابه عمر : أنا والله ما نسيته .

فالنظم العصرية تحار في وضع هذه الحادثة في باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف
والأوامر والمراجعات .

ولكن ماذا يصنع جندي المرور في عصرنا إذا شاء أن يميّط عن الطريق ويفض
الزحام ؟ وماذا تصنع المحاكم في تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة ؟

إن جندي المرور ليضرب بالدرة وبما هو أقسى منها ، وإن المحاكم لتعوض المضروب
بشيء من مال الدولة عن خطأ الجند والموظفين . وعمر قد عوض الرجل من ماله
كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهب به إلى بيته ، فإن لم يكن هذا المبلغ من مال
عمر وكان من خزانة الدولة فقد غرم عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا
إلا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه إلى ذويه ، وقد يكون الخطأ يومئذ
في الحساب لا في تصرف عمر بن الخطاب .

ورأى عمر امرأة في زى استغربه فسأل عنها فقيل له أنها الأمة فلانة ! فضربها بالدرة
ضربات وهو يقول لها : يا لكعاء ! أتشبهين بالحرائر^(٣) ؟

وهنا مجال واسع للحدلقة العصرية في الكلام على «الحرية الشخصية» وعلى حق من
يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء .

(١) أمط عن الطريق : تح وأفسح .

(٢) دار الحول : انقضى عام .

(٣) الحرائر : الأمة ضد الحرة والجمع إماء ، والحرائر جمع حرة ، واللكاء الخمقاء

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المربيات اللاتي يتنكرن بأزياء الحرائر ويأوين إلى البيوت في أحيائهم يخرجن معهن إلى الطريق ؟ وبماذا يختلف شأن النساء المربيات من شأن الإماء في زمن كن فيه متهمات الأعراض ؟

ورأى عمر رجلا يتبختر ويمشى مشية قبيحة لا تليق بالرجال ، فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لا يطيق تركها فجلده . وعاد بعد جلده إلى التبختر فجلده مرة أخرى ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين . إن كان إلا شيطاناً^(١) أذهبه الله بك .

الحرية الشخصية مرة أخرى !

غير أن عمر في عقوبته هذه إنما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقروه ، وكلهم يأبى أن يمشى في الأرض مرحاً ويعدها من قبائح الآداب .

ولكننا في العصر الحديث نقسم النواهي والأوامر إلى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور . وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء . وحجة العصر الحديث أن العقاب القانوني هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين إذا استطيع .

وعندنا أن حجة العصر الحديث في هذا ناهضة لاشك في صدقها ، ولكنها إن نهضت فإنما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء .. فماذا لو استطاع العرف في عصرنا أن يحاسب الناس بالحس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن تخطيء أو يجور ؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن عقابه ؟ إن أباه فليس صوابه في إباطه بأكبر من صواب عمر في تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا إلى عدل يعيننا أن نطمئن إلى مثله .

وقد تقدم أن عمر غضب على الخطيئة لهجائه الناس ونهاه أن يهجو أحدا فضرع إليه الرجل وقال : إذن أموت ويموت عيالي من الجوع ، فأذره ليقطعن لسانه ! ..

(١) إن كان إلا شيطاناً : أى ما كان إلا شيطاناً .

تم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء ثلاثة آلاف درهم ، فسلم الناس من لسانه واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر ثم عاد إليها بعد موته .

إن أمين الحساب في خزائن الدول الحديثة يحار في أى باب من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التى اشترى بها هجاء الخطيئة ، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمنًا للثناء والهجاء ، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميرًا مما وضع في الباب كله ، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الأخلاق ، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين .

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التى يستغريها العصريون وهم مخطئون في استغرابها أو قادرون على النظر إليها كما ينظرون إلى المألوفات لو أطلقوا عقولهم من عقال الصيغ والأشكال ونفذوا من ورائها إلى الجواهر والأصول .

كان عمر يعس في المدينة فسمع صوت رجل وامرأة في بيت ، فتسور الحائط فإذا رجل وامرأة عندهما زق خمر^(١) . فقال : يا عدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : أنا عصيت الله في واحدة وأنت في ثلاث ، فالله يقول : «وَلَا تَجَسَّسُوا» وأنت تجسس علينا ، والله يقول :

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾

وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه ، والله يقول :

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾

وأنت لم تفعل ذلك .. فقال عمر : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم ، والله لا أعود . فقال : اذهب فقد عفوت عنك .

ما أسرع ما تقول الخذقة العصرية وهى مستريحة البال : هذه بدوات^(٢) البادية في حكمها . تحسس ثم حاجة جدلية ، ثم نزول عن عقاب . وهى «طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية» التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورون !..

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث في إجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟

(٢) البدوات : جمع دواة وهى الرأى الذى يسح .

(١) الزق : السقاء (الإناء) .

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار .. والحكومات مع هذا المنع الدستوري تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فإذا اتفق في حادث من الحوادث أنها استباحت سرًا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الإجراءات الرسمية ؟ يكون ما كان من عمر في الحادث الذى رويناه بغير اختلاف .. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ، ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع ، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء . وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع ، لأنه جعل الاستطلاع سبيلا إلى العظة والتوبة ، واستغنى عن الإجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين !

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابه الذى خاطب به النيل يوم قيل له إنه أمسك عن الفيضان .

فقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص فى شهر بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سنة قديمة لا يجرى إلا بها ، وهى «أنهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا إلى جارية بكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقوا بها فى النيل» .. فلم يجيبهم عمرو إلى ما سأله وقال لهم : هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة وأيبب ومسرى لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيرا ، ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له : إني بعثت إليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل . وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : «من عبد الله عمر إلى نيل مصر . أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كنت تجرى من قبل الله فنسأل الله أن يجريك» .

وقال رواية هذه القصة : إن عمرا ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب بشهر وقد تهبأ أهل مصر للجلاء والخروج ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً^(١) ، واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الأعوام .

والرواية على علاقتها قابلية للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ . وقد يكون الواقع منها - إن وقعت - دون ما رواه الرواة بكثير . ولتكن على هذا صحيحة

(١) ذراع القياس تؤنث كثيرا وتذكر قليلا .

بخذايرها ، فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث ، ولا نقول على العقل «البدوى» قبل نيف وألف سنة ؟

إن عمر لم يجد أهل مصر معولين فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها ، ولم يقل لهم أن ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجربيه ، بل قال لهم إن النيل ليجرى بغير تلك السنة التى استنوها له وبغير القربان الذى يتقربون به إليه ، وليس فى هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب إلى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس والقوارير التى تكسر فى الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها ، وأقرب إلى العقل من البخور الذى يخرق فى البيع^(١) والهياكل جلبًا للفيضان واستغاثة بالسماء .

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجىء المعجب به إلى دفاع وتسويغ ، وليس فى كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به إلى دفاع أو تسويغ .

وإنما عرضنا لها توسعة لأفق النظر إلى العظمة الإنسانية فى مختلف أزمانها ، واستخفافاً بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الإنسان وإنها لأنفس ما نصونه ونعتز به فى جميع الأزمان . عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير «استمارة» مدموغة ينص عليها قانون المرافعات ! أو لأنه كان يقضى فيه على غير «الإجراءات العصرية» فى مواجهة الحقوق الشخصية ! أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضابير !

يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين العصور يتناول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات .

(١) البيع : الكنائس .

عمر والنبي

يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الإنسان بمغنى نفسى هو أوفر ثمرة وأنفس محصولاً . من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهر المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جداً فى النفوس التى نعهدها ، مما يتعذر جداً حتى فى نفوس الأفاضل من العظماء .

بيد أن المغنى الأكبر فى هذه الدراسة إنما هو مغنى علم الأخلاق . لأن علم الأخلاق أحوج إلى الاستقلال بالظواهر الطبيعية ، وأقفر إلى الإسناد والدعائم التى تقيمها أمثال هذه الدراسات .

فكل نفس - عظمت أو صغرت - فدراستها مغنى لعلم النفس لاشك فيه ، كائنة ما كانت النتيجة التى تتأدى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدا .

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد .

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق «فكرية تكليفية» يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه ، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب «الأجنى» عن نوازع الطباع .

فاذا اهتمدنا إلى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنى كبير .

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية هى فى الوقت نفسه حقيقة فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنى المضاعف الذى قلما ينال .

ونفس عمر بن الخطاب هى تلك النفس التى تدعم علم الأخلاق من الأساس ، وهى ذلك الصرح الشاىخ الذى ننظر إلى أساسه فكأننا تسلفنا النظر إلى ذروته العليا لأنه قرب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، إذا هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الإصلاح هى فى نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المرثيات والمسموعات .

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل فى طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التى تخيف فيخافها الظالمون .

ومنها فيما نحن بصددده الآن أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين .

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذى يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد ، وأن البطل الذى يقدسه عشاق البطولة لا يعيش البطولة فى غيره ، وأن التطلع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرًا وأحق بالإعجاب .

لكن البطل الذى ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة .. ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه ، ثم يخيل إليك من فرط ولائه لمن يفوقونه أنه خلق للإعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب .

فعمر كان يحب محمدًا حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس .

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة فى الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه ، وكان يعاملهم جميعًا معاملة الإخوان والزملاء ، فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد . فلو جاز أن ينسى أحد فارقًا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسيانًا إلى حين .

إلا أن عمر «العظيم» سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة «يا أخى» فظل يذكرها مدى الحياة .

استأذنه فى العمرة فأذن له وقال: «يا أخى لا تنسنا من دعائك» .. فما زال عمر

يقول بعدها كلما ذكرها : «ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس ، لقوله ياأخى !» .

شهادة لعظمة محمد أن يؤاخى الناس كباراً وصغاراً وأن الناس كباراً وصغاراً لا ينسون ما فى مؤاخاته من فخر وغبطة ، وما بينهم وبينه من فارق بعيد .

وشهادة لعظمة عمر أنه أهل لذلك الإخاء ، لأنه يدرك ما فيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ما عمر الذى يشيع فى قلبه الفرح بهذا الإخاء ؟

ليس بالرجل الذى يجب تواضع المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يهاب مخلوقاً غير الحق ، وبغير الإعجاب .

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحجته الأولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع ، وأنه كما قال : «لو علمت أن أحداً أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقى»^(١) أحب إلى من أن أليه»^(٢) .

نعم ، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفضلى ، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار .

لقد كان يسمع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر : «بخ بخ»^(٣) يابن الخطاب . أصبحت أمير المؤمنين !» .

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ .. كلا .. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى .. يعرف الإعجاب بما فوقه ، يعرف محمداً ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطل ، يعرف الإعجاب بطلا معجباً يبطل ، ويشاء فضله أن تحصي له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه .

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره ، ويتواضع لأنه يشعر بضعة فيه .

(١) العنق : يذكر ويؤنت .

(٢) أليه : مضارع من ولى الأمر فهو يليه وأنا أليه .

(٣) بخ : كلمة تقال عند الرضا بالشيء .

إن الصغير لا حاجة به إلى تصاغر لأنه صغير ، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء ، وتزويق الطلاء ، والتخايل بالمسكن والكساء .

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه ومحال أن تمتلئ نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها . فليس ذلك من معهود الطباع في حي من الأحياء ، ولا نقصر القول على الإنسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يركب البرذون^(١) وهو يغالب عزة الفتح داخلا إلى الشام دخول المنتصر ، وقيل له في ذلك فصاح بهم : خلوا سبيل جملي ! إنما الأمر من ها هنا ، وأشار إلى السماء !

وكلما اعتز من حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه بما يروونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر في أذهانهم ما ينسبهم السلطان المبسوط والكلمة العالية فقال لأصحابه يوماً وقد مر ببعض الشعاب^(٢) على مقربة من مكة : «لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحت وليس فوق أحد !» .

وضايقته هذه الكلمة ابنه فقال له : «ما حملك على ماقلت يا أمير المؤمنين ؟» قال : «إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها»^(٣) .

وانظر هنا إلى كلمة «أمير المؤمنين» يقولها الابن ، ثم انظر إلى كلمة «أباك» يقولها أمير المؤمنين .

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلاً خاشعاً يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله ، فخشع لله الذي جعله يأمر أبا سفيان في شعاب مكة فيستمع لما أمر .

وليس هذا وأشباهه تصاغراً يكشف الصغر ، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ، ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد .

* * *

(١) البرذون : ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب ، عظيم الحلقة غليظ الأعضاء .

(٢) الشعاب : جمع شعب (كسر الشين) وهو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق .

(٣) أن يضعها : أن يقلل من شأنها .

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتحدى فيه الصفات إلى غايتها وهى متناقضة فى النظرة الأولى ، فإذا بهذا التحدى يردّها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .

فمما رأيناه أنه عادل يفوق العدول ، وقوى يفوق الأقوياء ، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان .

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم ، ثم هو فى إعجابه بالبطولة كأنه خلّو من دواعى الإعجاب .

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينقض الاستقلال ، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال ، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب ، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر . ولم يكن أحد مستقلاً برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر . فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح . فما أحجم عمر قط عن مصارحة النّبي عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال .

فمحمد فى بيته وهو صاحبه ، ومحمد فى شريعته وهو صاحبها ، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الأمور . فكان يشير على النّبي عليه السلام أن يحجب نساءه ، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : إنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا !.. وتخرج إحداهن سودة وهى تحسب أن أحداً لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديه «عرفك ياسودة !» ليؤكد ضرورة الحجاب ، فيؤمر المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن إلا من وراء حجاب .

ولما هم النّبي عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أبى كبير المناققين يوم وفاته تحول عمر حتى قام فى صدره ، وأخذ يذكره مساوئ عبد الله وأقاريله فى النكايّة بالإسلام ، وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ، وألح فى التذكير حتى أكثر على النّبي عليه السلام

وهو يتتسم ويقول له : «آخر عني يا عمر ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت» ، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه .. ثم ما كان إلا يسيراً كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾

وروى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه أنفذه إلى رهط المسلمين فقال له : اذهب إليهم «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة» ، فكان أول من لقي عمر ، فصده وعاد به إلى النبي يسأله : «يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، أبعث أبا هريرة من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة؟» . قال النبي : «نعم» فلم يترث عمر أن قال : «فلا تفعل يا رسول الله ! فأني أخشى أن يتكل الناس عليها . فخلهم يعملون» ، فوافقه عليه السلام وقال : «فخلهم !» .

وفي التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد في حكمه ، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف . وهو هو الذي كانت الخمر شهوة له في الجاهلية يجها ويكثر منها ، ولو شاء لآتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها ، ففي سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأى والإخلاص في المراجعة ، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذي لا هوادة فيه .

وجرى صلح الحديبية الذي كان ظاهر الغبن فيه على المسلمين ، وظاهر الفوز فيه للمشركين . فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين ، فقد غمه هذا الصلح غمّاً شديداً وذهب إلى أبي بكر يراجع ويواجهه : علام نعطي الدنيا في ديننا ؟ فأجابه أبو بكر : يا عمر الزم غرزك أي رحلك^(١) فأني أشهد أنه رسول الله . وردد عمر أنه ليشهد أنه رسول الله ، ثم ذهب في بعض الروايات إليه عليه السلام فسأله : ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلتنا في الجنة وقتلهم في النار ؟ ورسول الله يجيئ : بلى ! بلى ! فيعود فيسأل : علام نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟

(١) الرجل : كل شيء يعد للرحيل من متاع ومركب .. الخ .

فلما ناداه : ابن الخطاب ! إني رسول الله ! ولن يضيعني الله أبداً ، ثم علم أنه الفتح المنتظر ، ثاب إلى الرضى وكف عن السؤال .

والحنّة على ما هي عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن إليه سورة^(١) طبعه . فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك فيردوا من جاءهم من قريش ولا ترد إليهم قريش أحداً ممن يجيئون إليها ، وأن يكتب النبي اسمه في عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله ، وهذه حنّة وردت على حمية^(٢) عمر بالوارد الجليل الذي ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى اتفقت الحنّة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه . فبينا هم يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله . فقام إليه سهيل^(٣) - وكان وكيل المشركين في عقد الصلح - فضرب وجهه وأخذ بتلايبه ليدفع به إلى قريش ، وأبو جندل يصيح : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فواساه النبي ودعاه إلى الصبر والاحتساب^(٤) ، ووثب عمر إليه يمشى إلى جنبه ويدنى منه قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فأما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . ورجا - كما قال بعد ذلك - أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه .. قال : ولكن الرجل ظن بأبيه ونفذت القضية .

فالحنّة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولأياها^(٥) سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيده ومعلمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابن الخطاب ! إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً ..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التي لا يجحد عنها ولا يأباها النبي عليه السلام ، وكثيراً ما جراه واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جرم يراجع النبي في كل عمل أو رأى لم يفهم مأثاه ومرماه ما أمكنته المراجعة ، وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار .

(١) سورة الغضب : وثوبة ، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه .

(٢) الحمية : الأنفة ، والمراد أنها نزلت على أنفة عمر وكبريائه نزولاً عظيماً . (٣) سهيل : هو أبوه .

(٤) الاحتساب : الصبر وادخار الأجر عند الله على هذا الصبر .

(٥) لأياها : اللأى الشدة والمثقة يقال فعل ذلك بعد لأى ، ولأياها عرفت الشيء ، أو لأياها

اللهم إلا أن نستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتى الخليفة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلال المهام . فلما دخل النبي عليه السلام فى غمرة الموت ودعا بطرس^(١) يلى على المسلمين كتاباً يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير ، وقال : إن النبي ﷺ غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبن^(٢) . ومال النبي إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب . ولو قد علم النبي أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين .

وكانت هذه سنته فى حياة النبي وبعد موته فى كل عمل لا يستريح إليه ، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيًا وميتًا فى مسألة ليست من مسائل الوحي الذى فيه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمن بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع .

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش إلى البلقاء ، وفيه جلة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبي القيادة ومات عليه السلام وهو فى الطريق ، فقال أسامة لعمر : «ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن إلى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس^(٣) ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل^(٤) رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون» ، وقالت الأنصار : «فإن أى إلا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة» .

وغضب أبو بكر وكان جالساً فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه ؟

فوجبت الطاعة ، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذى لا رجعة فيه ، وعمر جندى متى صرح^(٥) له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له إلا أن يطيع .

وختمت سنة النبي بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعاً إليها من عمر . ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله . إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى إقطاعه الأرض لعينة بن حصن والأقرع

(٣) وجوه الناس : أكابرهم .

(٢) حسبننا يكفينا .

(١) الطرس : الصحيفة .

(٥) صرح الأمر : وصح .

(٤) الثقل . الحشم والمتاع .

ابن حابس وقال لهما : إن رسول الله كان يتألفكما^(١) على الإسلام وهو يومئذ ذليل ، وإن الله قد أعز الإسلام .. « فاذهبا فاجهدا جهدا » .

فقد علم سنة النبي مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقفها ، فهي سنة تطاع لحكمتها ولا توضع في غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التي ألفوها من صاحب الرسالة ، إذا تغيرت الحكمة واختفت العلة ، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والأنفال^(٢) .

ولمثل هذا السبب ولا شك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًا عنهما كل النهى في حياة النبي عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه ، فنهى عمر في أيام خلافته وقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما » .

وموافقات عزم للقرآن وللسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلي مآتبها ومراميها ، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الإسلام فخراً أن يؤمن به الإنسان إيمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر . فالإيمان في أقصاه لا يعطل الرأي المستقل في أقصاه ، وكل صفة في عمر فهي صفة مستقصية لا وسط فيها . إذا آمن فذلك غاية الإيمان ، وإذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، وإذا أعجب فذلك غاية الإعجاب .. وإن الظفر الذى يظفره علم الأخلاق من دراسته لمبعثه هذا الشاهد من الصفات التى تتناقض فى ظاهرها وهى على عهدنا بها فى عمر متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرها .

فإن لم يكن فى دراسة عمر إلا أن نرى رجلاً عادلاً بالغا فى عدله ، قوياً بالغاً فى قوته ، معجباً بالبطولة بالغاً فى إعجابه ، مستقلاً بالرأى بالغاً فى استقلاله ، لكفى بذلك ظفراً لعلم الأخلاق ، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التى تستكثر على عشرات السير ، وهى أن القوة لا تناقض العدل ، وأن البطولة لا تناقض الإعجاب وأن الإعجاب لا يناقض الاستقلال ، وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدنه وملاعج سيماه .

(١) يتألفكما : يعطيكما ليستميل قلوبكما . (٢) الأنفال : جمع نفل وهو الغنيمة .

وكانت مودة النبي لعمر كمودة عمر للنبي شرفاً له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه .

كانت نظرة محمد إليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبر عارفيه ، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته . لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحدها ويرجو للإسلام خيراً منها ، بل يدخر للإسلام سورتته^(١) كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه في رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذى يعينه ويستعين بعيرته ، ويروضه رياضة الإمام لمريده الذى يهيئه للإمامة بعد حين ، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيع من ثبت فيه حسن الرأى ويستزيده منه .

ولا يتأتى أن ينظر النبي الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الإلهام الدينى والبصيرة الروحية ، فكان عليه السلام يقول فيه : «قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر» .

ومثله قوله فى بعض ما نقل عنه عليه السلام : «لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب» وقوله : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» ... وقوله : «عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان» .

وتلك لمحات نبي ملهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء ... وإن فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذاً إلى الضمير ، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر ، وقائع عهد روحى فى تاريخ الإنسان .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن محمداً قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليفة من خلائق طباعه . وراقبه قبل إسلامه وبعد إسلامه فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه ، إلا أنه لم يحمد منه شيئاً كما حمد حبه للحق وكرهته للباطل ، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قبلها ، وإن كان محمد لأرحب صدراً وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لا بد منه بين المعلم والمريد وبين الإمام والمأموم .

(١) سورتته : سورة العنكبوت وثوبه ، وسورة السلطان سطوته .

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريح ذلك الشاعر الذى كان ينشد النبى بعض الأماديج فاستنصته^(١) مرتين إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه . فصاح : واثكلاه^(٢) ! من هذا الذى أسكت له عند النبى ؟ فقال النبى : هذا عمر ... هذا رجل لا يحب الباطل !» .

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبى مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمداً كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذى يعرض عمر عن سماعه ... وإنما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه فى مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل ، ويعلم أن الإمام يطبق مالا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وأن محمداً أراد أن يعود الناس مهابة عمر ، وأن يستبقى لعمر سورتته فى محاربة الضلال ، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغي أن تراض عليه .

وهنا يتجلى مذهبان فى كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد .

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب ، ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضرورياً من الباطل وضروباً من الإنكار .

ومن الإنكار أحياناً أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص به الأيام حيث يزول ، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعد له ضرورياً من الإنكار ، وكان أكمل عدة له من الراصدين له فى ميدان واحد .

أنقول إن الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبى وخليفة ؟
إن قلنا ذلك فقد قلنا حقاً جامعاً لا شبهة فيه ، ولكننا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء .. فمحمد نبى وعمر خليفة ما فى ذلك خلاف . ولا بد بينهما من فارق ما فى ذلك خبر جديد ، فما هو الفارق الذى يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟
الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم .

(١) استنصته : طلب منه السكون والإنصات .

(٢) الشكل : فقد الحبيب ، وكلمة واثكلاه .. صيغة من صيغ التذبة يراد بها التحصر وإبداء الدهشة هنا .

فالنبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى ، بل لابد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء ، وتبيته للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها ، وإن لم يكن معرضاً لأدوائها ، شاملاً لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه ، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد^(١) ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر^(٢) بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها آفاقها كآفاقها هي آفاق الروح .

ومن الصغائر الآدمية التي كثيراً ما يطيقها الإنسان العظيم ويرى بها الرجل العظيم كل غرور صبايى يحبك بنفوس الناس ، وهو ضروب ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماجيحه ، وغرور الفنان بصنعتة ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بترائه ، وغرور الأحمق بخيالاته ، وغرور الجاهل بعلمه ... وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليمًا وهدى كما تجرى عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين .

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه في هذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته في أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبي عليه السلام بقيد الحياة .

فقد أشار على النبي بقتل عبدالله بن أبى بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين فأبى النبي وترك عبد الله يمضى في شططه حتى أنكره قومه وعنفوه ، وتصدى له من صلبه من يريد له الموت^(٣) ، فقال النبي لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

وكان عمر يستكثر صلاة النبي على عبد الله بن أبى بعد موته ويستعظم أن يهب له قميصه وأن يكفنه أهله في ذلك القميص ، وكان النبي يرضى في ذلك حق ابنه الذى أخلص في إسلامه ، وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبي قتل أبيه ، وسئل النبي كما

(١) الأنداد : جمع ند وهو النظير الكفء . (٢) أخبر : أكثر خبره .

(٣) كان من المنافقين وهو الذى قال في غزوة بنى المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فغضب الرسول والصحابة لقولته .

جاء في بعض الروايات : لم وجهت إليه بقميكم وهو كافر ؟ فقال : إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئا ، وإنني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب ! فقيل إن ألفا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول ، وخرجت الصحابة وعمر في طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوي الحكيم .

وشبيه بدرس عبد الله بن أبي درس الخطيب المفوه سهيل بن عمرو الذي أسر في بدر فأشار عمر على النبي بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام إذا كان مشقوق الشفة السفلى .. فأبى النبي «عسى أن يقوم مقامًا لا تدمه» ، فما زال وما زال عمر حتى رآه في حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام .

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشًا خسرت ولم تربح بالصلح الذي عارضوه ، وأن المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله ، وأنهم زادوا عبدًا وزادوا حلفاء من غير المسلمين ، وأن الذين رفضهم النبي من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشًا بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال . وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال : «مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا» .

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها في خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة ، وذلك حين بلغوه فتح «تستر» وذكروا له أن رجلا ارتد عن الإسلام فقتلوه : فلامهم على قتله وقال لهم : «هلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفًا فاستبتموه»^(١) ؟ اللهم إني لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذا بلغني» .

فهذا عمر تلميذ محمد في الإسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس ومعنى ذلك جميعه أن محمدًا أعظم من عمر ، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن النبي عليه السلام كان يعلم ما يحتاج إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس ، فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة الباطل لأنها خليفة متمكنة منه أصينة فيه موشوجة^(٢) بطبعه ، ولكنه قد يعوز، حيناً بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيما في فوعة الشباب^(٣) وألا يأسى على الحق

(١) استبتموه : رجوت توبته . (٢) موشوجة بطبعه : أى موصولة به مرتبطة .

(٣) فوعة الشباب : حدته .

أن تفوته معركة زائلة في صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهي معركة لا تضيق بصدمة ولا تؤخذ بهجمة ، ولا تزال سجالات منظورة العواقب في ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء .

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء في معظم الأحيان ، وهو أن يذكروا أن الناس جميعاً ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعاً ليسوا بعمر بن الخطاب ، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين ، وإذا استطاع أن يتصدى للموت في كل لحظة فليس ذلك في وسع كل مسلم ، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير وروية . أما على البداة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلاً لما هم أهل له وكفو لما هم قادرون عليه ، ولهم من الشرف في نسيان هذه الحقيقة فوق ما لهم من الشرف في تذكورها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداة في عهد النبي عليه السلام ، فكان يفضي إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره^(١) ، مطمئناً إلى مرجع الرأي ومقطع القول بين يديه ، شاعراً بواجبه الأول أحسن شعور في هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذي لا يظن بشيء من عونه ، فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه إذا شاء ، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير .

مثل عمر في هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة^(٢) فيسط ما عنده من المال جميعاً ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد ، وذلك أفضل الحسين وأكرم الواجبين ، وهو الواجب الذى يليق بعمر في صحبة الرسول .

ولا يحسن قارىء أننا نعتسف^(٣) التأويل والتخريج لننظر إلى عمر في أجمل الصور ونوجه أعماله أحسن توجيه فما نقوله هنا لا يعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة في عهد رسول الله ، وتفسيره - كما قال غير مرة - أنه كان سيفاً للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده في قرابه ، وأنه كان جلوازة^(٤) القائم بين يديه ، وليس

(١) تمليه بادرة فكرة : أى بما يتأتى له من رأى السريع . (٢) الحازبة : الشديدة .

(٣) الاعتساف : الأحد على غير الطريق ، يعنى أننا نحمل التأويل فوق ما يطبق .

(٤) الجلولاز : الشرطى .

من شأن الجلوأز أن يمكك كثرًا أو قليلًا من بأسه حيث يؤمر بأمساكه ، ويرد إلى الهوادة واللين .

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدة عمر ولينه ، فكلمنا تحدثوا إليه بغلظته قال : إنما يشتد لأنه يرانى لينًا ، ولا غلظة على الضعفاء فيه .

فكان جميلًا بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضار وكان أفضل واجبه لا مرأى أن يعرض البأس حتى يؤذى ، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليفًا أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله إليها ولم يجعل باله إلى تقديم ما عنده «والجود بأقصى جوده» فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام ، ولولا استعدادده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدوة ولا أغنت معه المثل والتجارب .

ومهما يكن من حاجته إلى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام إلا كان مفتقرًا إلى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقارًا إلى ذلك من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزه وما يعوزهم من مواضع الهدى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح من هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام . فقد دعاه حتى وصل الأمر إليه رضى الله عنه فلباه . وتفصيل ذلك كما جاء فى رواية البخارى أن النبى اشتد عليه المرض فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس : قالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك لا يكاد يسمع الناس من البكاء . فلو أمرت عمر ؟ فعاد النبى يقول ، مروا أبا بكر فليصل : فعادته ، فقال مرة أخرى : مروه فليصل ، إنكن صواحب يوسف^(١) .

وحدث عبد الله بن أبى زمعة أن بلالا دعا النبى إلى الصلاة فقال : مروا من يصل

(١) العبارة تحمل معنى اللون والعتب على النساء ، والإشارة إلى موقف النساء فى قصة يوسف عليه السلام .

بالناس ، «فخرجت فإذا عمر في الناس ، وكان أبو بكر غائبًا ، فقلت : قم يا عمر فصل بالناس . فقام ، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته ، وكان عمر رجلاً مجهرًا^(١) . فقال : فأين أبو بكر ؟ يأتي الله ذلك والمسلمون . فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس» .

قال عبد الله بن أبي زمعة إن عمر لقيني فقال لي : ويحك ! ماذا صنعت لي يا ابن أبي زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس .. قلت : والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك ! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيته أحق من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبي عليه السلام قصد إلى اختيار أبي بكر للقيام في مقامه من إمامة المسلمين وضمن ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم . فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ وعلى أى وجه تساءل النبي عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبي بكر فقال : «يأتى الله ذلك والمسلمون» ؟

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمل بمحمد ويكمل بأبي بكر ويكمل بعمر كما يجمل بالمسلمين .

فمن البديهي أن ينظر النبي في اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التى تدخل في الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد .

فإذا نظر النبي إلى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبي بكر ولا يقع عليه ؟

إن اختيار أبي بكر يجمع للإسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق إلى الإسلام وثانى اثنين في الغار ، وأقمن^(٢) أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله الرأى الصائب والشجاعة الماثورة والإيمان الثابت والمسألة المرضية والحق الظاهر في الإيثار كلما قبل بعيره من الحقوق .

(١) مجهر : مرتفع الصوت .

(٢) أقمن : أجدر وأولى .

ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى الموقف الذى كان منظورًا بعد موت النبى عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يغنيان إذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون . فإذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر فى رفقته وهوادته فذلك إذن موطن الإجماع ، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواء فصلابتهم أقمن إذن أن تعطف بليته إلى الإجماع الذى لا شذوذ فيه .

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر فى استخلافه إلى كل اعتبار ، وقد وزن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة .

ومما نظر إليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك . فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر ، وإذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج إليها فسيستفيع الإسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه ، يوم تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ما أغناه الرفق فى تأليف الأوداء^(١) ولا يحسبن قارئء هنا أيضا أننا نستخلص النتائج من التاريخ ونذكر ما كان بعد أن كان ، فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورًا إليه قبل أن ينكشف عنه الغيب ، وقد نظر إليه النبى عليه السلام فقال : «أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قلب^(٢) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً ، فلم أر عبقرىا يفرى فريه ، حتى روى الناس وضربوا بعطن^(٣)» . ولم يخف معنى الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتتمل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار إليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدة وعجلة الموت الاشتغال بحرب أهل الردة عن «الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته» .

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن فى عصرنا . فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضوعية ونواحيها الخاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها

(١) الأوداء : جمع وديد وهو صاحب المودة .

(٢) القلب : البئر ، الذنوب . الدلو المملوءة .

(٣) والعطن : مبرك الإبل حول الماء والغرب : الدلو العظيمة .

بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه هي التقديرات التي فصلت في مسألة الترشيح للخلافة فأى غضاضة فيها على عمر ..؟ إنها شيء لا يتناوله وحده ، وليست لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وإن الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديمًا للصالح في تلك الأحوال ، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفاء للخلافة ، وعمر كفاء للخلافة ، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين .

وإنك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة في رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر .. وذلك أنه عليه السلام لم يرم قط أمرا فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما في مسألة الاستخلاف أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس فكل الذى حدث فيها فهو الذى يجمل بالنبي من تقدير وتدير ، ويجمل بصاحبيه من إثارة وتوقير ، ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير ، وانتفاع بعمل كل عامل ، واقتدار كل قدیر .

* * *

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبي وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيه لأنه يتم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر في الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت ، وبين عمر وابنى عم النبي الكبيرين على وابن عباس بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى .

فالذين أولعوا في التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيرا في هذه العلاقة ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم مناجزة لعصية فيه عليهم ، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن في هذه الوجهة . وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا إلى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه . وهى الوفاء المحض لذكرى النبي عليه السلام فى آله وخاصة بيته ، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل .

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبي النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة ، وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام

من رحم وقربة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس إليه في اللقاء والحفاوة ، فكان في بعض الأيام ينتظر الحسين بن علي رضي الله عنه فذهب إليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر في الطريق فسأله : من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لي . فرجع الحسين ولم يذهب إليه .. ثم لقيه عمر معاتباً وسأله : ما منعك يا حسين أن تأتيني ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .. فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندى مثله ! وأنت عندى مثله ؟ وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟

وكسا عمر أصحاب النبي فلم يكن في الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضي الله عنهما ، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسي !

وسافر إلى الشام فاستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة . وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه في قضائه متخرجاً من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله . استفتاه بعضهم في مجلسه فقال : اتبعوني ، وأخذهم إلى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إليّ ؟ قال عمر : أنا أحق بإتيانك .

وكذلك كان يستفتي ابن عباس في الدين والأدب ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً في الحديث إلا قال معجبا متبسّطاً : غص غواص^(١) وقلما سئل في أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه : عليكم بالخير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبتة وعتابه . وفي ذلك يقول لابن عباس : إني رأيت رسول الله ﷺ يستعمل الناس وترككم والله ما أدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ؟ أم خشي أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب ؟

أما مسألة الخلافة فالذي يزعمه فيها الذين يخوضون في القضايا والمخاصمات أن عمر رضي الله عنه تعمد أن يحول بين علي والخلافة بصرفه النبي عن كتابة الكتاب الذي

(١) الغوص : النزول تحت الماء ، يقال : فلان يغوص على حقائق العلم ، إذا كان كثير البحث فيه .

أراد أن ييسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده ، ويزعمون أنه هو قد حال بين على والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته في دعوة على إلى مبايعة أبى بكر كما جاء في بعض الروايات التي ترجح صحتها ، وخلاصتها «أن عمر أتى منزل على وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة ، فخرج الزبير مصلاً بالسيف فسقط السيف من يده فوثبوا عليه^(١) فأخذوه ..» أو قال لهما في رواية أخرى : «والله لتبايعان وأنتما طائعان ، أو لتبايعان وأنتما كارهان» .

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة وعدوها من إصرار عمر على الاجحاف بعلى وإقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار على للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث يسىء إلى كل ذى شأن في هذه المسألة ، ولا تقتصر مسأته على عمر ومن رأى في المسألة مثل رأيه .

فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره ، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال ، أو إشارة كالإشارة التي فهم المسلمون منها إثارة أبى بكر بالتقديم ، وهى إشارته إليه أن يصلى بالناس .

وقد عاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ولم يكن بين على وبين لقاءه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوج على عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة . فلو شاء لدعى به وعهد إليه .

وفضلاً عن هذا السكوت الذى لا إكراه فيه ترجع إلى كل سابقة من سنن النبي في تولية الولاة فترى أنه كان يجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمداً صلوات الله عليه أراد خلافة على فحيل بينه وبين الجهر بما أراد .

ولم يعتمد عمر على الشورى في اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها . فقد رأى من أصحابه - كما قال - حرصاً سيئاً وخلافاً لا يحسمه رأى واحد ، وكانت حيرته عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة :

(١) مصلاً بالسيف : مجرداً السيف من غمده .

ماذا تقول لله عز وجل إذا لقيتَه ولم تستخلف على عبادِه؟..أصابته كآبة ثم نكس رأسه طويلا ثم رفع رأسه وقال:«إن الله تعالى حافظ الدين، وأئى ذلك أفعل فقد سن لى.إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر» .

واختار للشورى في أمر الخلافة أناسا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكأنهم كانوا مسمين بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم هو لرشحهم لها كل مختار .

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذى أوحى إليه أن ينفذ يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره . فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحدا فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجماع ، وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون .

وكان مع هذا يود لو اجتمع رأى على اختيار على بعد المشاورة فقال لابنه : لو ولوها الأجلح «أى المنحسر الشعر» لسلكت بهم الطريق ، فسأله ابنه : فما يمنعك أمير المؤمنين أن تقدم عليا ؟ قال : أكره أن أحملها حيًا وميتًا .

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبى والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين على وغيره .

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصابة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت .

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى الناس «إن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم . ألا إن فى قريش من يضمم الفرقة ويروم خلع الربة^(١) ، أما وابن الخطاب حى فلا . إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد» .

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحسن منهم الطمع فى خلافته لأنه واحد منهم ، فيصارحهم قائلا : «بخ بخ بنى عدى . أردتم الأكل على ظهري ، وأن أهب حسناتى

(١) الربة جبل تشد به البهيمة ، وفى الحديث «خلع ربة الإسلام من عنقه» .

لكم ، ولا والله حتى تأتیکم الدعوة وإن أطبق علیکم الدفر ..» أى وإن كتبتم فى الأعطیة آخر الناس . وهو الذى أبى أن یختار ابنه للخلافة وقال للمغیره بن شعبه الذى زین له استخلافه لا أرب^(١) لنا فى أموركم ، وما فیها لأحد من بیتی . إن كان خیرًا فقد أصبنا منه . وإن كان شرًا فبحسب آل عمر أن یحاسب منهم رجل واحد .

وجمع علیًا وعثمان فى مجلس الشورى لاختیار الخلیفة فالتفت إلى علی فقال : «اتق الله یا علی إن ولیت شیئًا ، فلا تحملن بنی هاشم علی رقام المسلمین» .

والتفت إلى عثمان فقال : «اتق الله إن ولیت شیئًا فلا تحملن بنی معیط علی رقاب المسلمین» ، أو قال بنی أمیه .

وكان أكبر همه أن یعصم الإسلام من الملك الذى یتأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثیرًا ما سأل : والله ما أدرى أخلیفة أنا أم ملك ؟ مستعیذًا بالله من كل سلطان لا یعم جمیع رعیاه بالخير .. وكلمته لابن عباس حیث قال : «إن الناس کرهوا أن یجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وإن قریشًا اختارت لأنفسها فأصابت» هى كلمته حیثما تكلم فى هذا الصدد لا یخص بها بیئًا دون بیت ولا معشرًا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة ، إلا الأمانة لمصلحة المسلمین جمیعًا حیثما اتفقوا علیها أو كان لهم رجاء فى الاتفاق .

وما كانت لعمر صرامة مع علی لم تكن له مع غیره فى مأزق الخوف من الفتنة والدود من الوحدة فقبل أن یسلم الروح كانت وصيته وهو لا یعلم من الخلیفة بعده : «إن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ^(٢) رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رأسیها . فإن رضی ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر ، فأبى الفريقین حکم له فلیختاروا رجلا منهم ، فإن لم یرضوا بحکم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذین فیهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقین إن رغبوا عما اجتمع علیه الناس» .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بین الفئتين المتساویتین إلا لأنه خارج من الاختیار ثم لم یجعل له القول الفصل حتى یفتح للناس مخرجًا من رأیه إن شاءوا ألا یتبعوه .

(١) الأرب : الغرض والغایة .

(٢) الشدخ : كسر الشیء الأخوف .

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء في مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزّه عن خبايا القلوب .

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس . هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : «عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان» .

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

وقد تواترت أقوال الصحابة في عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويكبر في أعين الناس أكبر من تقال فيه . لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة ، وألسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق في إنسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع . وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور . أما الشهادة التي تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهي قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : إنكارها كإنكار المحسوس الذي تقع عليه الأيدي ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام .

ولكن انتهاءها بسلام لا يعنى أنها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أية حال ، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة . إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق .

فما هو إلا أن لحق النبي بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعي النزاع من كل فج ، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكن ، وجهل أعلم الناس كيف تتجلى الغاشية ويستقر القرار .

فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة ، ولأنهم في ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم جميعاً عرب مسلمون ولهم فضل التأيد والإيواء .

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع ، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون إلى الإسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين .

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوى فى الخلافة النبوية ، وبين آل رجلا ن قويا هما على والعباس ، لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمحضت عن خطب عظيم .

. وكن هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها فى قريش ، فدخل على على والعباس يثيرها ويعرض عليهما النجدة والمعونة ، ويهيب بعلى باسمه ، ثم بالعباس باسمه : «يا على ! وأنت يا عباس ! ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأها عليه - يعنى أبا بكر - خيلا ورجلا وأخذتها عليه من أقطارها»^(١) فيجيبه على بما هو أهله : «لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا : ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها» ، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفى على سعيه فى هذه العصبية فيقول : يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحه بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم !» .

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغمون ، وكان هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير^(٢) من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون ، فهم إن لم يفسدوا فى الأرض لا يصلحون .

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مسألة الخلافة بسلام فيكون انتهاءها بسلام أعجوبة الأعاجيب . وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسما واحدا هو اسم عمر بن الخطاب .. إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف فى وجهها عمر وقفته المروية يوم السقيفة ؟

سؤال يدل على سر تلك العجيبة قبل كل جواب . فما عرف رأى عمر فى البيعة حتى بطل الخلاف إلا ما لا خطر له . واطمأن من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه ، واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أو شكت أن تكون كلمات .

(١) الرجل جمع راجل ، وقوله «لأخذتها عليه من أقطارها» تهديد بأنه سينازله من كل ناحية . وصوب .

(٢) شفير كل شيء : حرفة .

قال أبو بكر لعمر : ابسط يدك نبايع لك .

قال عمر : أنت أفضل مني . قال أبو بكر : أنت أقوى مني .

قال عمر : إن قوتي لك مع فضلك . لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر . أنت صاحب الغار مع رسول الله ، وثاني اثنين ، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق بالناس بهذا الأمر .

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر ، فتواثب الجميع من علية الصحابة يبتدرون البيعة ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس : «إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وأولى الناس بأمركم ، فقوموا فبايعوا» .

فكانت البيعة العامة ، وتركت شجرة الخلاف للجفاف ، فإن لم تذبل لساعتها فهي وشيكة ذبول .

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

وذلك قدر عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبي بكر ، وقدره عند الله ، تعنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفي تلك الكلمات الموجزات التي تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين ، وحكم التاريخ في أبي بكر وعمر ، وفي موقف الخلافة من بدايته إلى منتهاه .

قال عمر : إنك أفضل مني . وقال أبو بكر : إنك أقوى مني .

وقال عمر : إن قوتي لك مع فضلك .

صدقا غاية الصدق ، وجاملا غاية المجاملة ، وقضيا بالعدل والحكمة والإخاء ، وتركنا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب ، ثم لا يزيد في فحواه كلمة على ما ضمته تلك الكلمات الموجزات .

ولقد كانت من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر في خلافته حتى يرجع عن رأيه ، وكان من فضل أبي بكر أنهم يسألونه مستثيرين : والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر ؟ فيقول : هو لو كان شاء !

وكان فضل أبى بكر وقوة عمر جمعًا لا يشذ عنه مكابر ، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه .

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأى جميع لا خلاف فيه ، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ، ويتجهان إلى غرض واحد ، فهما غير مفترقين إلى أمد طويل . وأعجوبة الأعاجيب فى هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معًا بعد موت النبى بأيام قلائل ، وهى مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين ، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون .

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر فى مشكلة كبيرة أو صغيرة ، وإنما العجب هو نوع هذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد . فيخالف أبو بكر لأنه ينجح إلى الشدة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه ينجح إلى اللين والهوادة ، ثم يلتقيان ولا يتعارضان .

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًا على قوله : «والله لو منعوني عناقاً^(١) لقاتلتهم على منعها» .

وعمر يقول له : «كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله !» .

ويشارك عمر فى رأيه جلة الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى : «إنه أمين الأمة» ، وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى «إن سالمًا شديد الحب لله» ، وأناس من هذه الطبقة فى صحابة الرسول .

ويعود أبو بكر فيقول : «إن الزكاة حق المال» وفيها نحارب بالحق . ثم يهيب بعمر : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ؟

فإذا بعمر يثوب إلى شدته بعد أن أفرغ أمانة رأى كما قال : «ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق» ، وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه . أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟

(١) عناق : معزة .

قل هذا وذاك فالقولان مستويان . ما دمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهما . العقيدة الراسخة التي لا تفارقهما ، وطالما جمعت العقيدة جيوشاً على قلب واحد ، فضلاً عن رجلين .

ولئنما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان في المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضة بحال ، فأما أن يكون لها وجه آخر يديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتاً في موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذى راضه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان عمر خليفاً أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه في الحرب والسياسة فقد كان بطيئاً إلى الحرب كما عرفنا من عامة وصاياه ، وكان أبطأ ما يكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين ، وكان جيش الإسلام بعيداً عن المدينة في غزوة الروم التي خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبى بكر بالخلافة ، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف ، أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانته عن الأمير المسئول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير إذن ألا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأى على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع .

ومثل هذا الرجل ، معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه .

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها في مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات الضعف فيه ، لأنه رأى الرأى فلم يحجم أن يديه ويشرح حجته ، جريئاً فيما رآه .

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبى بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : «إن قوتى لك مع فضلك» ، فكسب الإسلام خليفتين معاً بتقديم أبى بكر للخلافة لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأرباً غير خدمة الإسلام .

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه .

عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لي فيها ، فقال أبو بكر : «ولكن لها بك حاجة يا ابن الخطاب» .. وسأل خيرة أصحابه فقال له عبد الرحمن بن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه ، وقال عثمان بن عفان : إن سريره خير من علانيته ، وإنه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن الحضير فقال : «اللهم أعلمه الخير بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط ، والذي يسر خير من الذي يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه» .

وأجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر في ترشيحه . ولعلمهم لم يذكروا من مناقبه إلا ما هو به أعلم وأخير ، فلم يزد ثناء المثنى علما بصاحبه ! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه ، لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب في حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض ، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين .

قال له وهو يعرض عليه الخلافة : «يا عمر ! أبغضك مبغض وأحبك محب . وقدما يبغض الخير ويحب الشر» .

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له : «إنك كنت تأخذ على يديه ولا تطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا ؟» .

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس ، فقال لمن خوفوه الله وعمر : «أبالله تخوفوننى ؟ خاف من تزود من أمركم بظلم . أقول : اللهم قد استخلفت على أهلك خير أهلك !» .

ولو شاء أبو بكر لقال إن ما خوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التى قدمته عنده على غيره ، فقد خاف عليهم الفتنة ، وكان أكبر حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطعام^(١) وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره «هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قد انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحب كل أمرىء منهم لنفسه» وقال له : «إن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فأياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزلوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك» .

(١) الطعام : جمع طغامة وهو الرغد .

فالذين حذروه عمر إنما رغبوه فيه ولم يخذروه منه ، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبى بكر ، ورجاء فى صلاح أمر الأعلام والطعام .

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إثارة عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته ، وأبرأ إلى الله ذمته ، ودعا بعثمان فأملى عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم أبعدى ... » ١٠

ثم أخذته غشية فكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ، ولم يترك الكتاب خلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر فى تلك الغشية فيلج من يلج بالخلاف ، وله شبهة يحوم عليها .

وإنه ليكتبها إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب ، فكبر وأدرك ما وقع فى روعه فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الإسلام خيراً : والله إن كنت لها لأهلاً^(١) .. » ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة بإجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده إلا أن تكون وراثة فى دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان فكانت شهادة من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب : بالبدية التى لا تكذب فى صادق ولا كذوب . وجائز جداً أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يحتتمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، إذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتق أسباب التباعد فى الظنون والآراء ، ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون ، والمتفقون على حمده يزدون ، ثم هم يزدون فى حمدهم إياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد .. قال عثمان : ما يبكيك ؟ قال : أتيت أمير المؤمنين^(٢) بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى

(٢) يعنى عمر بن الخطاب .

(١) أى : إنك كنت أهلاً لها .

الغلام ، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحداً قال له شيئاً .. قال عثمان : «إن عمر كان يمنع أهله وقرباته ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله . ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر !» .

وبكى على يوم موته فسئل فى بكائه فقال : «أبكى على موت عمر . إن موت عمر ثلثة^(١) فى الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة» وقال عبد الله بن مسعود : «كان إسلامه فتحة ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة» .

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردھا ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن» . وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه : «لله در ابن حنتمة !.. أى امرئ كان !» .

ولم يقل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناء كهذا الثناء ، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأرى على الأمل فى إنصاف بنى الإنسان .

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره.. إلا أنه كان مفضلاً فى هذه كما كان مفضلاً فى جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها ، وقليل منهم من كان قادراً أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال .

جمع منهم مجلس المشورة لا يرم أمراً ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مآثورات النبى وأحاديثه .

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعاً له فجنبهم ولاية الأعمال قائلاً لمن راجعه فى ذلك : «أكره أن أؤنسهم بالعمل^(٢)» فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه وتدييره . هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملاً من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان .

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رعوس القبائل وقروم^(٣) الجزيرة العربية . فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين^(٤) وحضره معهم صهيب وبلال وهما مولىان

(١) الثلثة : الخلل ، ورتق الثلثة : إصلاحها .

(٢) يعنى بالعمل هنا الولاية والحكم ، أما العمل للإنتاج فقد سبق أن عرفنا رأى عمر فيه .

(٣) القروم : جمع قرم وهو السيد . (٤) أى : ليس لهم مثيل بين السادة الكبراء .

فقيران ، ولكنهما شهدا بدرًا وصحبا رسول الله ، فأذن لهما قبل عليه القوم ! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أر كاليوم قط ، يأذن هؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ أما صاحبه فكان حكيما فقال : أيها القوم ! إني والله أرى الذى فى وجوهكم .. إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم - إلى الإسلام - ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ .

ولم غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال ، ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل .

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذى يعطى كل ذى قدر قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما نذب الناس إلى غزو العراق فبادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتحلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار . وأجاب من راجعوه قائلا : « لا والله ! لا أفعل . إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابا » .

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما « إنكما لو سبقتما لوليتكما .. » والتفت إلى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبى ﷺ ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب » . هذا ما استحقوه ، فلا رجحان لهم إلا بالحق ، ولا رجحان عليهم إلا للحق .

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء ، وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها . فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم . فربما حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها إلا بإذن وإلى أجل ، مخافة منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس . ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجا بسابق بلائه مع رسول الله ﷺ ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يزوده بها عن السفر ، ويقول له : « إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك ، وبحسبك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وإن خيرا لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، فهو القسطاس الذى لا يجور ، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء .

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين . فلكل رجل ولكل عمل حقه ، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله ، ولا ينفع أحدًا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله . فكل عمل وله حساب ، وكل قدر وله كرامة ، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم إلى العمل النافع . وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن إذا استحقه ، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف ، وليس هذا ولا ذاك سبيل إلى عمر . لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات^(١) .

على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتبس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل ، وقل فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين .

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادة^(٢) كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذًا عن خطته مع جميع القادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرًا أن يصنعه ، سواء كان القائد خالداً أو كان رجلاً غيره .. وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيث ، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين ، وتنظر إليهم بنظرتين مختلفتين .

عزل عمر خالدًا وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لابد لخالد ابن الوليد من عزل أو قاض عادل فلن يكون عزله وقاضيه غير عمر بن الخطاب . هو على قدر عزله بلا مراء ، وهو قدر كبير .

فقال أناس إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه ، وقال أناس إنها ترة^(٣) قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده .

(١) ضليع بالتبعات . قدیر علیا .

(٢) الحادمة : يقال : خدمته الشمس أو النار : أى : اشتد حرها عليه . واحتدمت النار أى اشتد حرها ومه :

(٣) الترة : النار .

احتدمت المناقشة .

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم ، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق وخلق توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالده لعمر في خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونهم خالده بن الوليد .

فمن شاء أن يخطب بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يرثه من الخيانة ويعلمهم «أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به» .. قال : «فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنه» . ولما سأله خالد في ذلك قال له : «إن الناس افتنوا بك فخفت أن تفتن بالناس» .

فمن شاء أن يخطب بالظن هنا فقد يخطب ما شاء وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه ، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدًا بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة ، وأن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين و كال بكيلين .

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه إلى أيام النبى عليه السلام ، وبعضه إلى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وبعضه إلى أيامه ، وكله مما يصح أن يؤخذ به في موقف الحساب ، وإن كان الذى حدث في أيام عمر وحدها كافيًا لما قضاه في أمره .

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالدًا عن القتل والقتال وقال له وللزبير : «لا تقتالا إلا من قاتلكما» . ولكن خالدًا قاتل وقتل نيفًا وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب : من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليد . فأمره أن يدرك خالدًا فيناه أن يقتل امرأة أو وليدًا أو عسيًا - أى أجيرًا - وبعث إليه من يسأله : ما حملك على القتال ؟ فاعتذر بخطأ الرسول في تبليغه . وشهد الرسول ^(١) على نفسه بالخطأ فكف عنه .

ثم بعث رسول الله خالدًا إلى بنى جذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه للقتال ، وأمره ألا يقاتل أحدًا إن رأى مسجدًا أو سمع أذانًا ، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال

(١) يعنى الرسول الذى حمل رسالة النبى عليه السلام إليه .

بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلت من القوم غلام يقال له السמידع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا إليه . فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ قال : نعم . رجل أصفر ربة^(١) ورجل أحمر طويل . وكان عمر حاضرًا فقال أنا والله يارسول الله أعرفهما . أما الأول فهو ابني ، وأما الثاني فهو سالم مولى بنى حذيفة . وظهر بعد ذلك أن خالدًا أمر كل من أسر أسيرًا أن يضرب عنقه ، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما .. فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» .. ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يقصد إلى القوم ومعه إبل وورق^(٢) ، فودى^(٣) لهم الدماء وعوضهم من الأموال .

وفي عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالدًا إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقتلهم حتى يثوبوا إليها . فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير إليه . وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : قد عهد إلى أن أمضى وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم .. » .

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم ، يشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم في ليلة باردة ، وأرسل فيما قيل منادياً ينادى : أدفئوا أسراكم ، فظن القوم أنه أراد قتلهم .. لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل في لغتهم .

ويروى أن مالكًا قال لخالد : ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ، فلم يجبه خالد إلى طلبته وقال له : لا أقالنى الله أن أقُلتك ، وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه . وتزوج بامرأته في الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

(١) ربة: معتدل الجسم .

(٢) الورق : بكسر الراء ، المال من الدراهم .

(٣) ودى : أعطاهم الدية وهى المال يعطى لأهل القتل بدل النفس .

وقد أبلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبي بكر : إن سيف خالد فيه رهق^(١) فاعتذر له أبو بكر بأنه «تأول فأخطأ» وودى مالكا واستدعى خالدًا إليه .

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفي عمامته أسهم غرزها للمباهاة ، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : قتلت امرئًا مسلمًا ثم نزوت على امرأته ؟ والله لأرجمنك بأحجارك !

وكان أبو بكر رضى الله عنه هم بعزل خالد لاستثاره بتصرف المال الذى فى ولايته فسأل عمر : من يجزىء جزاء خالد ؟^(٢) فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك ، وتجهز عمر حتى أتى الخيبر في الظهر في الدار ، لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبي بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه ، وأن يبقى خالدًا في ولايته لحاجته إليه ، فعمل بما أشاروا .

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر . فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيرًا إلا بأمره ، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله . وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه : «إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك بعملك» فلم يطقها عمر وقال : «ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه» .

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم ، ونفى لأمر إليه كما كانت تنمى إليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده . فكتب إلى أبى عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة «فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف» .

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدأ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر ، ونزع منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله . فقومت عروضه وضم ما زاد منها إلى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ : «ياخالد ! والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شئ» .

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار ، لأن

(١) الرهق : الظلم والسمه والطغيان .

(٢) يعنى : من يقوم مقامه ويكون فى مثل كفايته ؟

اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه ، والأرجح أن في تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد في أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره في أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد في الموضوعين أقوالا متشابهات .

تلك حملة المآخذ التي أخذها على خالد من عهد النبي عليه السلام إلى عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد شيئاً كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزاناً غير الموازين التي يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول . فرأى عمر في إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه ، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ابنه في بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف ، ثم أنكر النبي عليه السلام ما أنكره واستصوب ما استصوباه .

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال ويوصى قواده جميعاً بالترث فيه ، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يجعل بالقتال كما قال لسليط بن قيس : لولا أنك رجل عجل في الحرب لوليتك هذا الجيش والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث .

وكان يتخرج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه ، وتقدم في هذا الكتاب أنه لام أناساً من أصحابه لأنهم قتلوا رجلاً ارتد عن دينه ، وقال لهم : «هلا استبتموه وحبستموه ؟» وتبين من رأيه في أهل الردة أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال . فإن كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فإنكاره لمقتل مالك ابن نويرة وأصحابه هو رأيه الذي لا شذوذ فيه ، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته^(١) ، ووقع البناء بها في أثناء المعركة ، وهو أمر لا يتفرد عمر بكرأته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة ، مسلمين وغير مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم^(٢) قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم ، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم أن يدحلوا المدينة نهراً لينكشف ما عادوا به إليهم ، ويقاسمهم كل درهم يربى^(٣) على المحسوب من

(١) البناء بالمرأة : الزواج منها .

(٢) العروض : الأمتعة .

(٣) يربى : يربد .

أرزاقهم . ويجرى على السنة مع كل وال وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحدًا قط ، ولم يعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير .

فالذى صنعه خالد حين أنكر «سرعة هجماته وشدة صدماته» سنة عمرية لا شذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها ، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة ، لأنه لا يحاى ولا يفرق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يجب أن يقال أن رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الإسلام ، فرما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام من عزل وال مظلوم أو ولادة مظلومين .

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولادة والعدل فى محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن فى أيامنا «بالسياسة العليا» . عمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا فى فهمها وتأويلها على ما نراه ، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل .

فكان يرعى فى شئون الولاية الكبار والقواد المشهورين أمرين يميزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة .

أحد هذين الأمرين أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يبيل أحسن البلاء ولم تتسائر بذكره الأنباء ، فليس لهذا خطر فى بقاءه كخطر القائد الكبير . وخطته هنا عامة لا يخص بها واليًا دون وال ولا قائدًا دون قائد .

فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لم عزلتنى ياأمير المؤمنين ؟ ألعجز أم خيانة ؟ فقال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديمًا قال فيه عمر : لو كان قرشيًا لساق العرب بعصاه فالحيلة منه وفاق رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ الحيلة ويطيل الروية ، ثم يجزم بالرأى السديد فى غير إبطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب .. فعزله أبو بكر كما أشار .

فإذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المآخذ التي أنكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظنة في أسباب عزله .

لقد رأى زهو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق بالشهرة أنداده من القواد : رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفي عمامته السهام . ورآه يوم استقل بيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده ، ورآه في أمور كان يتدبئها ولا يستأذن فيها ، ورآه فيما يحس ولا يلمس ومما يقدر ولا ينتظر ، «فإذا أشفق أن يفتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه» .

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل في غير جريرة ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح ، وأن يعزى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه ، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله ، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير .

فإن كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقواده في كل ميدان فلا خسارة هناك ، بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد . وإذا حان اليوم الذي ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير .

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شيء فتراه فيه على صواب : تعزوه إلى إيمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتعزوه إلى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتعزوه إلى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقاً أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس بذكرهم ما ذكرهم به حين كتب إلى الأمصار بعد عزله خالداً «إن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة» .

ولو أن رئيساً لخالد غير عمر بن الخطاب في إيمانه المكين لما فاته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم في جميع الميادين ، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما في يديه : تلك قوة العقيدة لا مرء ، إن ضاعت فلا عوض عنها ، وإن بقيت فللقادة عوض كثير .

فكيف بعمر بن الخطاب الذي يؤمن بهذا إيمان تسليم كما يفكر فيه تفكير سياسة

وتدبير ؟ لئن نسى ذلك هو الحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فافتضاه ذكره أن يعزل خالدًا بغير جريرة لما كان عليه من لوم . وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفًا عن حسابه للقادة الولاة .. وقد كان أبو بكر نفسه - وهو من أبقى خالدًا - يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال : أعجزت النساء أن ينشعن مثل خالد !

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة في كل نجاح وإسناده كل فشل إلى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ في فتحها فالتمس عمر علة ذلك في ضعف نياتهم وكتب إليهم يقول : «عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتهم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم» .

فنظرت في عزل خالد هي النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها في مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان وهل أخطأ ؟ هل كانت منه حماسة إيمان ولم تكن روية تفكير ؟ هل يرى غير هذا رأى ناقد عسكري من أعداء الإسلام لو بحث في الأمر ونفذ إلى حقائق الأسباب ؟ كلا ، بل هو صدق رأى وصدق الإيمان معًا مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك .

ودون هذا من أسباب «السياسة العليا» يميز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحدًا في أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالدًا فيها ؟ إنه إذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه ، وإن الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه : أن يسكن الناس إلى التفرقة في الحساب ، وأن يألفوا ما يعاب إذا عيب من الرؤوس والأقطاب ، دون الأتباع والأذئاب .

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصري وهو ينظر في عزل خالد للأسباب التى قدمنا أو لأى سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية في عصرنا غير حقوق الولاية في عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة في دول الإسلام .

فالولاية في عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى ، وكأنها صناعة العمر التي لا يَحتمل عمر الإنسان تجديد صناعتي مثلها . فإذا قيل إن واليًا عزل في عصرنا فكأننا نقول إن تاجرًا صودر ماله أو زارعًا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حري أن تلتبس لها أسباب من قبيلها في الرجاحة والإقناع .

غير أن الولاية في عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذي اصطلاح عليه وإن لم ينص عليه القانون ، وإنما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالي لأسباب أهون من تلك الأسباب التي قدمناها في الرجاحة والإقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة في ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

«لله در» ابن جنتمة» ! .. أى رجل كان !» .

كلمة قالها رجل يعرف الرجال . قالها عمرو بن العاصر وكأنه لم يكن يود أن يقوها لولا أنطقه بها الإعجاب الذي لا يجدى فيه كتمان .

وهي كلمة يقوها الناظر في سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذي يبحث عن الخطأ فيلفيه حيثما يبحث عنه عسيرا جد عسر .. أى رجل كان هذا الرجل ؟ أى عدل كان عدله ؟ أى قسطاس كان قسطاسه ؟ أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ وأى سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟

وربما اختلف الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقل في ذلك ما تشاء ، وقل في خلائق عمر ما تشاء .. قل هي الشدة والصرامة ، أو قل هي الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق في عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف الصواب .. قل ما بدا لك من ذلك واذهب ما شئت أن تذهب فيه ، فإنك لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك في سبب انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لا يزال أمرا إلا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج .

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع إلى الذين

يردونه إلى المنافسة والتناظر فتجيز هذا ولا نمنعه ، أو نرى فيه منالاً من قدر عمر ومنقصة تغض من إعجابنا بمزاياه . لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة ، ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم في تاريخ الإنسان .

و في عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضغفهم على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا بإقصائهم عن الحكم ولا بحاسبتهم بين يدي القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة فبقى لأولئك الأبطال حقهم الخالد في الثناء والتعظيم . وإذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصى عليه خطأ غير عزله لخالد ما جرى مجراه فما أكثر هذا صوابا على آدمي وإن كان من أعظم العظماء !

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفي خلدنا هذا الفرض الذي يحملنا على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر إلى جانب حسنات ، فلا ضير أن يكون له موضعه في جانب تلك الحسنات .

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه في هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ولا نزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود ، حتى نطقنا بها كما هي ، وغفر الله لابن العاص .

وهكذا كنا نصنع في كل خطأ نسب إلى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء . فلا نزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه ، أو يضعف سنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه ، إلا لمن يتجنى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب . كلا . هذا رجل لا يسهل نقده ، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب هو نفسه ، ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه إلا على أنه اختلاف في الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فإذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب .

فالذى حصل والذي كان متوقعا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وإنصافه في قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيها بما وجب عنده ، وانتهى كل شيء بعد ذلك في هذه القضية بانتفاء الغرض منها في مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا . إذ لا موضع فيها لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر إليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب على في شيء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض في قضيته إلا أن تثار في معرض عام ، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار ، ويقبل ما شاء له كرم الخليفة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايخين وإن أغلظوا في المقال ، على ما كان له من هبة ترد الجامع وتخيف من لا يخاف .

قال من خطبته بالجابية : إني أعذر إليكم من عزل خالد بن الوليد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان . فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه : «والله ما أعذرت يا عمر . ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله ﷺ ، وأعمدت سيفاً سله رسول الله ﷺ ، ووضعت أمرا نصبه رسول الله ﷺ ، وقطعت رحما وحسدت بنى العم ..» .

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره : «إنك قريب القرابة ، حديث السن ، تغضب في ابن عمك» .

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزله في أمصار المسلمين ، فكتب ما ألعنا إليه أنفا يرحض عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه ، ولا لتريب عليه .

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع^(١) مرارا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه ، ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيية .

ولم يهمله أن يذكر صوابه أو خطأه في عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال : «قد ثلم في الإسلام ثلثة لا ترتق» . وقيل له : لم يكن هذا رأيك فيه ، فلم يحجم أن يعلن قائلا : «ندمت على ما كان مني إليه» .. وقال في غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلामه وسلاحه :
«رحم الله أبا سليمان ، كان على غير ما ظنناه به» .

وقد كان عمر ينهى عن النذب والعويل ، فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يكيهه وسئل عمر أن ينهأهن قال : «دعهن يكيين على أبي سليمان ، ما لم يكن نفع أو لقلقة . على مثله تبكي البواكي» .

(١) استرجع : قال : «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

ودخل هشام بن البختري في أناس من بني مخزوم على عمر فاستنشد شعره في خالد ، وقال له وقد أطلال الإصغاء إليه : « قصرت في الثناء على أبا سليمان . رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضا لمقت الله . رحم الله أبا سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه » .

ومن الحق أن يقال أن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل في صفحته فإذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعد عزله ، وفي شدته على عدوه وطاعته لأمره .. وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل في ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلق فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحا أي رجحان . وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقا بالغض عنه والتجاوز فيه .

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشائف ، وكل منصف وجاحد ، وما نحال أن تقديرنا خالدا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان في هذه القضية من جديد فقصارى ما نغنم من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء في منصبه ولم يكن مستحقا لعزله ، وليس ذلك بشيء إلى جانب ما رأيناه حين ننصب الميزان في القضية كما نصبه خليفة الإسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الأبطال ، فإن أخطأ البطل - على تقدير خطئه - فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر وخالد وللإسلام من كل ميزان .

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه ، إنه كان أديباً مؤرخاً فقيهاً ، مشاركاً في سائر الفنون ، مدرّباً على الرياضة البدنية ، خطيباً مطبوعاً على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب .

ظل في إسلامه كما كان في جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية . بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها ، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويبحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن : «يا بني انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه . ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يود حقاً ولم يقترب أدباً» .. وقال للمسلمين عامة : «ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق» .

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية ، فقال فيه أنه جذل^(١) من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة^(٢) ويبلغ به القوم في ناديم ، ويعطني به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التي لا يبالي الموت لو حرم نصيبه منها ، فكان يقول : لولا أن أسير في سبيل الله ، وأضع جبهتي لله ، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت .

وإذا اقرنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ .

وقد كان إعظام الرجل في عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمطلق الحصيف ، فنظر يوماً إلى هرم بن قطبة ملتفاً في بت^(٣) بناحية المسجد وقد عرف

(١) الجذل : الأصل . (٢) النائرة : الهياج . (٣) البت : الطيلسان من خز ونحوه .

تقديم العرب له في الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضالة ومنظر زرى ، فأحب أن يكشفه ويسبر حكمته ، فسأله في علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل : أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر^(١) ؟ فأجابه الرجل : يا أمير المؤمنين ؟ لو قلت كلمة لأعدتها جذعة ، أى لأعاد الحرب فتية كما كانت ، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكت إليه العرب . !

وجاء وفد فيه الأحنف فتركهم جميعاً واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات .

وسره أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد في سبيل الدين : فكان يقول إن الشعر « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وعزو فارس والروم وهبت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلوا^(٢) إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، فألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره .

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثه على تعلم العربية « لأنها تثبت العقل وتزيد في المروءة » ، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية .

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته ، ولم ينكر من الشعر إلا ما ينكره المسئول عن دين ، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغي أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضى المتحرر الأمين .

فنهلاً عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء ، وجيء له بالحطيئة منهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه :

دع المكارم لا ترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي^(٣)

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضى الذى يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصاعقة ، وقال للزبرقان : ما أسمع هجاء وكنها

(١) نفر فلانا ينفره : علمه في المنافرة ، ونفر فلانا « تشديد الماء » وأنفره : أعانه وغلبه وحكم له ، وهو المقصود هنا

(٢) لم يثلوا : لم يرحعوا .

(٣) الطاعم الكاسي : أى المطعم المسكو .

معاينة . ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش في هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود إلى مثلها ، فأنتهى طوال حياة عمر ، ثم عاد إلى الهجاء بعد وفاته واستعداه تميم بن مقبل على النجاشي لأنه قال في قومه بنى العجلان :

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة

فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاء يدفع الحدود بالشبهات : إنه دعاء والله لا يعادى مسلما .

قال تميم : فإنه يقول عنا :

قبيلته لا يغدرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء . قال تميم ، وإنه يقول :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه .

قال تميم : وإنه يقول :

ولا يردون الماء إلا عشيّه إذا صدر الورد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام)

قال تميم ، وإنه يقول :

وما سمي العجلان إلا لقولهم

هذا القعب^(١) واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أنفعهم لأهله .

قال تميم ، فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلّل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذك عليه ، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب .

(١) القعب : قدح ضخم عريض ، جمعه قعاب وأقعب .

وقد تجوزنا فقلنا إن عمر نسي علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة في القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب في نسيان أدبه . ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستطيع . فكان عمر في تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف إليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه .

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها .

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه ، وكثيراً ما كان يقول كما جاء في البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب . ولم أسمع ذلك عن الخطاب .

ومن وصاياه : «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد»^(١) إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا . ومنها «عليكم بطرائف الأخبار ، فإنها من علم الملوك والسادة ، وبها تنال المنزلة والخطوة عندهم» .

وفقه عمر بالشرعية التي كان مسئولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبد الله بن مسعود يقول : «كان عمر أعلمنا بكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله» ، وكان إذا اختلف أحد في قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأظن بقال : «لو أن علم عمر بن الخطاب في كفة ميزان ووضع علم الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم» ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم .. وقال ابن سيرين : «إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشك في دينه» ، وكل ما فسر به آي القرآن في معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح في وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائح للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء في طلبه ، فكان يقول : «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون ، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم» ، وكان يوصي طلابه «أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم ، ويسألوا الله رزق يوم بيوم ، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم» ، ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة «فتفقهوا قبل أن تسودوا» .

(١) النبط : جيل من العجم ينزلون بالبضائع بين العراقيين .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين ، ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال : «تعلموا من النجوم ما يدلکم على سبيلکم في البر والبحر ولا تزيدوا عليه» . ولا شك أن نصائحه العملية في طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه ، شأنه في ذلك شأن رجل الدولة الذي يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم .. ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذي رويناه في علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن في أيامنا ، فإنما الزيادة التي كرهها هي تلك الزيادة التي كانت على عهده تخوض في التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أرباباً تعبد وأرصاداً تؤتمن على أسرار الغيب . وذلك ما ننهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح .

ولم يفته الحرص على المعرفة التي تختبر منها منافع للناس في أمر المعاش ، فطلب إلى أئمة لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه في عصره ، لا يضره أنه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقيه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار .

على أن زبدة الثقافة كلها في أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص في شيء واحد هو الدراية بالناس ، ونفاذ البصر في شؤون الدنيا ، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو ما نسميه في أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو محال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه ، وحفظت له كلمات معانيه ينذر مثيلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين» .

وأى نفاذ في تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول : «ما وجد أحد في نفسه كبرا إلا من مهانة يجدها في نفسه» ، أليس هذا بعينه هو مركب النقص الذي يلهج به علم النفس الحديث ؟

وأى رأى في تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول :

«لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب» أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصبحت في السفر ؟ أعاملته ؟ فلما أجابه نفياً قال : «فأنت القائل بما لم تعلم ؟» .

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : «إذا توجه أحدكم في الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرا فليدعه» ؟

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتبى المعصية ولا يفارقها ، وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتبهها ، أيهما أفضل وأجزل مثوبة عند الله ؟ فكتب في هذا فصل الخطاب إذ قال : «إن الذين يشتبهون المعصية ولا يعملون بها» ، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَمَّا تَحَنُّ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) وكذلك وصيته بكتان السر وتبسيه لحسن عقباه حين قال : «من كتم سره كان الخيار بيده» .

وكذلك وصيته في الحب والبغض حين قال «لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك نلفا» .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال «أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر» .

وكذلك وصاياه التي كانت تحفل بها كتبه إلى الولاة وخطبه في الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التي هي خلاصة الثقافة المحمودة في أقطاب الحكم خاصة ، وفي كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته في سائر الفنون والمعارف التي كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها إلى التفصيل .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف «جغرافية» الشرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقا عن سماع وعن رؤية وعن زكاة تعين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيرا عن ذلك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه وقالوا في شكواهم إياه «إنه لا يدري علام استعمل» وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختياره .

ومن الواجب أن نشك في كل خبر يوهم أن عمر كان يجهد معرفة من المعارف العملية التي يحتاج إليها في تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهد المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجرا منذ نشأته في الجاهلية ، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هي

الألوف وما هي عشرات الألوف ، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء في أخبار الخراج من هجر والبحرين .

قال أبو هريرة ما فحواه : قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم : فأتيت عمر بن الخطاب ممسياً أسلمه إياه فسأل كم هو ؟ قلت خمسمائة ألف درهم ! قال : وتدرى كم خمسمائة ألف درهم ؟ قلت نعم : مائة ألف ومائة ألف خمس مرات .. قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح !

فكل شيء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهده .. إنما هو غبطة واستعظام وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى حملة الحساب .

وإذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظاً من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الأحيان ، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جئء له برجل يغنى فى الحج وقيل له إن هذا يغنى وهو محرم ، فقال : دعوه فإن الغناء زاد الراكب .

وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عباس ، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رياح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو ويبيد الحداء والغناء . فسأله ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستكراً : مع عمر ! قالوا : احد فإن هناك فائته . فحدا^(١) ، حتى إذا كان السحر قال له عمر : كف فإن هذه ساعة ذكر ، ثم كانت الليلة الثانية فسأله أن ينصب لهم نصب العرب فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلاً : مع عمر ؟ .. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فإن هناك فائته . فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر : كف فإن هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسأله أن يغنيهم غناء القيان^(٢) فما هو إلا أن رفع عقيرته^(٣) بغنائهن حتى نهاه وقال له : كف فإن هذا ينفر القلوب .

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره .

(١) الحداء : الغناء للإبل كى تجد فى السير ، والنصب : غناء أرق من الحداء وهو غناء الركبان .

(٢) القيان : جمع قينة وهى الجارية البيضاء ، وقيل : تختص بالمعنية . (٣) عقيرته : صوته .

خرج مرة للحج ومعه خوات بين جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات قواده . فما زال يغنيهم حتى كان السحر ، فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا .

وجاء قوم فذكروا أن إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه ، واستنشد الأبيات التي يغنيها ، فأنشده :

وفؤادى كلما نهته عاد في اللذات يغنى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهياً في تمادية فقد برح بي
يا قرين سوء ما هذا الصبا فنى العمر كذا باللعب^(١)
وشباب بان^(٢) منى فمضى قبل أن أقضى منه أرى
نفس لا كنت ولا كان الهوى اتقى المولى وخافى وارهبى
فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شكوا إليه : من كان منكم مغنياً فليغن هكذا وكان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها
أبر وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الركب إليه ، فقرأ فتفرقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح بهم : «يا بني المتكأ^(٣) ! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم ؟ ..» لا يلومهم على الغناء وسماعة ، وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولا شك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع في نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجره على زينة الحسان ؟ فقد دخل في روع أناس أنها جميعاً من نقائص حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلاً من أدباء مجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من ماثور حسناته ، لأنه كان شديداً في الحجاب وكان يفى الفتيان الحسان

(١) الصبا : من التوق ، يقال منه (تصاى) ، والصبا اللعب مع الصبيان .

(٢) بان . ذهب وودع . (٣) المتكأ : المرأة لم تحن .

كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان ، وكان يقول : «استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر» .

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بآثره . وما نخال أحدًا من المترخصين في الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمان عمر بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة في الشوق إليه كما عرفه وأمر برعايته ، فإنه كان ينكر على الآباء أن يكرهوا فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم : «ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهم يحببن ما تحبون» . وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يحجم وأن تقلم أظفاره ، ويؤخذ من شعره ، ثم قال له ولمن في مجلسه : «هكذا فاصنعوا لهن فوالله إنهن ليحببن أن تزينوا لهن كما تحبون أن تزين لكم» .

فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق في معرض الجمال فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

* * *

ومن الآداب العامة التي لها حظ من ذوق الجمال في معارض السياسة أدب الذكريات الذي لا يستغنى عنه ولادة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها .

ففي هذا الأدب كان لعمر النصيب الذي يعنيه ، فهو الذي اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي . وإنه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام لأن العقائد كما قلنا في «عبرية محمد» : «تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التي تعتقد حقًا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقًا فهي النفس التي تؤمن في الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء» .

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفخة من ذوق الذكرى كان مجيبًا له سريع الإصغاء إليه . فكان يحترم وفاء بلال وإقلاعه عن الأذان بعد وفاة النبي عليه السلام ولكنه دعاه إلى الأذان تلبية لاقتراح الجلسة من الصحابة في يوم وداع دمشق بعد الفتح المين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويدا رويدا في الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الأسماع إلى الصدور ، والتفتوا وكأنهم يسألون :

ماذا ؟ هل عاد محمد إلى الأرض ؟ إن لم يكن قد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان ... فذابت قلوب لا يذيتها الهول ، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال .

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ، وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الإسلام ، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة .

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل ، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن «علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سيار من المثل وحسن من الشعر» ولا يفتأ يذكرهم أنه : «لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو» أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف - كالضاد - من كلا شديقه وهى تنطق فى الأغلب من شذق واحد .

وكان جهورى الصوت واضح النطق سليم الشفتين فى إخراج الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرأها فكأنك تصغى إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع .

ولا نطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يستهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذى يغير من نظرتة إلى الناس ويلجئه إلى المدارة والباطل فكان يقول : «ما يتصعدنى^(١) كلام كما تصعدنى خطب النكاح» ، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق^(٢) ، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى «أن الخطيب لا يجد بدا من تركية الخاطب ، فعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه» . وكلا القولين جائز فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح . فهو

(١) ما يتصعدنى كلام : ما يشق على . (٢) الحداق : جمع حدقة وهى سواد العين .

مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصدق الذى تثقل على صاحبه المداينة ، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى أنه كان شاعرا ورويت أشعار لا تشبه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : «لو كنت أقول الشعر لرثيت أخى زيدا» .

ولا طائل فى هنا الخلاف لأنه لن ينتهى إلى رأى قاطع يسكت عليه ، ولكننا المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعا على التعبير وله عبقرية فيه ، أو أنه تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه ، فهو تعبير عمرى بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام ، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة .

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول : «لولا الخليفة لأنت» وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الإغراب .

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله : «وجئت إلى خالى فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب» أى أوصده .

ومنها وهو يصف ما وقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلنى رجلاى» ، يعنى أنه عجز عن القيام .

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها : «شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذمة ، وأجود الخط أئينه»^(١) .

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد : أنها «كانت تزفر للناس القرب» أى تحملها .

ومنها فى المشورة : «الرأى الفرد كالخييط السحيل ، والرأيان كالخيطين المترمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض»^(٢) .

(١) مشق فى الكتابة : مد حروفها وأسرع فيها ، هذرم القرآن : أسرع قراءته لا يتدبر معانيه .

(٢) السحيل : الثوب السحيل الذى لا يرم غزله ، مرار : قوى محكمة .

ومنها حين كتب إلى أبي عبيدة بعد ولايته الخلافة : «.. ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس»^(١) .

ومنها حين شكّا إليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه :
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال : ذلك أنفى «للسكالك» أى الزحام .
ومنها فى سماحه بالبكاء «ما لم يكن نفع أو لقلقة» أى ما لم يثر التراب ويفرط فى العويل ..

ومنها وقد حار بأهل الكوفة : «أعضل»^(٢) بى أهل الكوفة ما يرضون بأمر ولا يرضاهم أمير .
ومنها : «إن قريشا تريد أن تكون مغويات لمال لله» أى مصائد تحتجته لها دون عباد الله .

ومنها : «تعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا» أى تزوا بزى العرب من معد بن عدنان .
ومنها : «فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلتشوا»^(٣) بدار معجزة أى تقيموا .

ومنها : «فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا» أى أن يتعرضا للقتل .

ومنها : «.. إن الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ماتوعظون به ، فإن الحريب من حرب فى دينه» يريد المسلوب .

ومنها وقد سمع بالمرأة سافرة يبرزها زوجها فقال : «هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما» أى لأغلظت القول لهما .

ومنها لما سأله : لم حصبت المسجد فقال : «هو أغفر للنخامة وألين فى الموطئ» أى أستر للبصاق .

(١) الكنف : الجماعة .

(٢) أعضل لى : أعيى أمرهم .

(٣) فى المختار : ولا يقيموا بلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش .

ومنها : «ثلاث من الفواقر^(١) : جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها ، وامرأة إن دخلت عليها لستك وإن غبت عنها لم تأمنها . وسلطان إن أحسنت لم يحمذك ، وإن أسأت قتلك» ، ولستك : أى تناولتك بلسانها .
ومنها : وهو يخاطب سعد بن عبادَةَ ويوم السقيفة : «لقد هممت أن أطأك حتى تنذر عضدك» أى تسقط .

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس : «خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر» ، أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان .
ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال : «والله لئن بقيت لياثين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانة أقبل أن يحمر وجهه» ، أى قبل أن ينجل ويحمر وجهه فى طلبه .

ومنها قوله لأعرابى استفتاه فى صيد ظبى وهو محرم : «أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا!» أى تعيها ولا ترضها .

وأشبه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدا أن نكثر شواهدة لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لئلا يظن واحد من العبارات .

ويلحق بهذا تسمية مواله بين أسبق وأسلم ، ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء ، وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وإنما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكرم وفى اختيار الأعلام ، فلا تستطيع أن تسميها إغرابا أو عسلطة أو تعملا^(٢) بنحو من أنحائه ، إذ ليس وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهو قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف . وهكذا كان المتكلم عمر ، وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعاً على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلقته كما كان .

* * *

(١) الفواقر : جمع فاقة وهى الداهية .

(٢) العسلطة : الكلام بلا نظام ، وكلام معسلط أى غلط . والعمل : التكلف .

ومحصل هذه الأخبار جميعاً أن عمر كان من نخبة المثقفين في العربية ، وكان وافر السهم في ثقافة قومه وعصره . وكان الجانب العملي من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود في ساسة الأمم وعواهل الدول . وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفائس الشعر وأطاييب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر .

* * *

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية إلى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى في زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التي شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التي قبل إنه أمر بإحراقها . فهل هو الأمر بإحراقها كما جاء في تلك الرواية ؟ وإذا كان هو الأمر بذلك فما دلالة على تفكيره ؟ وما وجه التبعة فيه ؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى في الإسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه : «أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله فقى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه . فتقدم بإعدامها» . قال مفصل هذه الرواية : فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها !

وأخرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين أدمجوها وأبرأوا عمر من تبعاتها كان معظمهم من مؤرخى الأوروبيين الذين لا يهتمون بالتشيع للمسلمين وكانوا جميعاً من الثقافات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع .

فالمؤرخ الإنجليزي الكبير إدوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلاً : «أما أنا من جانبي فإننى شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجبية في الحق كما يقول مؤرخها إذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميديّة بعد ستائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحي وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق بوتيخيوس Eutychius الذى توسع في الكتابة عن فتح الإسكندرية . وأن القضاء الصارم الذى نسب إلى عمر لبغض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسيحيين في الحرب ، وما كان من الكتب دنيوياً ظنيئاً سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى إلى متقدمى

الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والإبادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعاً لقلّة المادة المحترقة! فلا ترجع إلى نكبة المكتبة في الحريق الذى أصابها على غير قصد يبدى قيصر وهو يدافع عن نفسه ، ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيراً لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا ننحدر شيئاً فشيئاً من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكلى سرايس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى إحدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير ، فإن كانت هذه هى الوقود الذى أفتته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعدد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الإنسان !» .

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الإنجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداءً لأن حنا فليبيوتوس الذى قيل أنه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيّاً فى أيام فتح العرب لمصر .. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيراً من كتب القرن السابع كانت من الرق^(١) وهو لا يصلح للوقود ، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان ، وأنها لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوماً ، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خلوا من المصادر والأسناد ، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد ، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلائل بين طوائف المسيحيين . والمستشرق كازانوفيا يسمّى الحكاية أسطورة ويقول أنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر ، ثم يقول : «.. وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر ، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت

(١) الرق : يفتح الراء وكسرهما ، جلد رقيق يكتب فيه .

مصر وكان مقرِّبًا من عمرو ولم يذكر شيئًا عن مكتبة الإسكندرية ، فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة في عصره .

ثم يمضى في تفنيده فيقول : وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التي حرقها عمر عند فتح العرب . وقال ابن خلدون في كلام آخر : إن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبى وقاص عمر عما يأمر به في شأن الكتب التي بها فأمره بإلقائها في اليم فانتقلت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن ، وفعل الخيال فعله في تحريفها .

«وقد وقع تحريف في هذه الخرافة في بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل إن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحوا الإسكندرية ٨٦٨ وأضرموها فيها النار على عهد أحمد بن طولون .. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكمًا عليها فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم» .

قال : «وفي سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الإنجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية» .

قال : «وسلم هنا بالسبب من أجله ظهرت هذه الخرافة في القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك» .

«ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد ، وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر ، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب . وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين ، فتلاقيا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها . فكأن أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشىها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتاب إلا كتاب الله ..» .

ومن المشاركة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء

الثالث من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى» حيث قال إنه كان يميل إلى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك «أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلفها أبو الفرج لتعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطلق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرًا محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار ، ولم يكن يجب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة من غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة ، وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات ، وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صده ، وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذوا عن مصدر ضائع . وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب ، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفوا بعد نضج التمدن الإسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفة قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر ، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج ..» .

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فإن ابن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاة المكتبات . فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون .

فمن جملة هذا العرض لأراء نخبة من الثقاة فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وأنها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح ، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذمى عليه وعلى الإسلام .

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه إلى الكتب المدونة ، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها .

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها في وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة .

فهو يستلزم أن يكون الملقق عليما بالأقوال والأحوال التي أثرت عن عمر بن الخطاب . وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريية التصديق مشابة لما يتوخاه الخليفة في أوامره ونواهيه .. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين ، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملقق عارفا بما في هذه التهمة من المعاية ، شاعرا بما فيها من الاعتساف والغرابة . ولم يكن هذا أيضا مفهوما في أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام ، لأنهم كانوا قد تعودوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسا من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولا سيما «ثاوديسيس» الذي أحرق هياكل شتى ، فيها ولاشك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف .

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر أخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ، ولم تكن مصر قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية ، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناطق الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها . وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر حزا بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الإغريقية في بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية ، وهي البلاد التي كانت موطئ أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والإياب ، ومنها تدفق حافظو الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية إذن كان عجبيا في أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملقطى ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام .

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك

التلفيق ، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل .

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية ، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شئ مفيد للمسلمين ولغيرها من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفریط فيها ؟

أمن النقص فى تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ، إن صح أنهم حفظوها ؟

إن أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفسية ، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفریط فيها .

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاسف الأمور . فإذا كان عمر مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المتوال ؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدوًا للمعرفة على إطلاقها ولم يكن عمر عدوًا للمعرفة ولا معرضا عنها ، بل كان مشغوفًا بها حيث رآها دينية أو أدبية ، ومن قومه أتت أو من غير قومه .

فكان يستشير الغرباء فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينتهى عن علم شئ إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يقبلوا على دراسة القرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب . وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه ، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر

المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمة واليأس وسودهم على العالمين .

وفى الأخبار التى نقلت بهذا الصدد أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابا فيه كلام معجب ، فسأله : أمن كتاب الله ؟ قال لا . فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ :

﴿ الرَّيَّاكُ أَيُّتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ثم قال : «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأسأفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسوا وذهب ما فيهما من العلم» .

رويت هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما ياباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين .

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى أنوار وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهيمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمن ما فيها ؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شذر مذر^(١) ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه ؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إثارة المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى الفقه والوعى والإقبال ؟ وأين هى الغنيمة الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الإسلام ؟

فعلى أى فرض من الفروض لم يكن فى تصرف عمر ما ياباه العقل الذى ينظر إلى

(١) شذر مذر : أى متفرقين .

الحقائق المشهودة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية على أبعد احتمال ، ولكن الذى يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها . ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها ، ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخطون فى الضلالة والهزيمة ، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدى مستقيم .

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر - صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاصرة والقياصرة والفراغة ، ومدبر الحكم في الرقة الوسطى بين قارات العالم المعمور - رجلاً فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف ، ويقنع من الغذاء والكساء بخط لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام ، فلم يقبلنه إلا وقد خIRON بينه وبين الطلاق .

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهى جميعاً مما تغالى به السير وتزدان بجماله ، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهاداتين : أن يعيش في بيته عيشاً لا يشتهى ، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلافة^(١) تغرها ، ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأبأها .

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن في سلطانه .

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفاً لم نسمع فيما قيل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة إنه رجل «أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر إلى ربه بعينه» .

والذى نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله أنه كان يخافه كأنه يراه بعينه .

فهو في الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شعونه . إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان ، وحقق مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

(١) خلافة : أى ما يخلب ويخدع

ومهما يكن من إيمان بالغيب فهو لا يبلغ في اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين ، وهى قولة عابرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل ، ولعلها لا تدرى مدى صوابها .

وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له : الأمر إليك ، ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إنه خشن العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبه^(١) بالرفض فوسطت فى الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره ، فجاء عمر وفاجأه قائلاً : بلغنى خبر أعيدك بالله منه . قال ما هو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر . قال نعم ، أفرغبت لى عنها أم رغبت بها عنى ؟ قال : لا واحدة ، ولكنها حدثت^(٢) نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك على خلق من أخلاقك . فكيف بها إن خالفتك فى شيء فسطوت بها ؟ كنت قد خلقت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !.. ففهم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء . فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة . كيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله .

وأم كلثوم بنت على حدثت أيضاً ، والمحظور فى إغضاها أكبر من المحظور فى إغضاها بنت أبى بكر ، وإن اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها ، فقد كان حرياً به أن يعتمد على شيء من ذلك فى خطبته لبنت الصديق .. فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر - أن يفهم خبيطة سعيه ، وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما ، ويعمل بما يراه الصواب .

والطريف فى القصة - وكلها طريف - أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق فى مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح إليها ، ولكن دارس الأخلاق لا ينبغي أن يعيب هذه الخصلة إلا بمقدار ما فيها من نقص فى الطباع الإنسانية الأصلية . إذ اخفق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة ، ولكننا نخطئ كل الخطأ إن حسبناها

(١) تجبه : تواجهه .

(٢) حدثت : صغيرة السن .

حرمانًا من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة ، ويغلب في هذه الحالة أن تكون خشونته - كما أسلفنا في فصل سابق - درعًا يستر بها مواضع اللين في خلقة ، وضربًا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية .

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة ، وليست نقيض العطف والرحمة . وعمر بن الخطاب من أفاضل الرجال الذي تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى في علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمة في غلاف ، وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولا مس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودة ، مفتوح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولى حميم .

فنساءه اللاتي عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه ، وكانت إحداهن التي سميت العاصية سماها النبي عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه ، فإذا خرج مشى معه إلى باب الدار فقبلته ولم تنزل في انتظاره .

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد ، وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة ، توهت^(١) في رثائه حين قتل فلم يكن بكأؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها في تأيينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :

عصمة الناس والمعين على الد
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا
هر وغيث المنتاب والمحروب
قد سقته المتون كأس شعوب^(٢)

وقالت فيه :

رءوف على الأدنى غليظ على العدا
متى ما يقل لا يكذب الله قوله
أخى ثقة فى النائب منيب
سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه :

جسد لفف فى أكفانه
رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه :

(١) توهت : كاد عقلها يذهب من شدة الحزن .

(٢) شعوب : اسم للمنية «الموت» ، سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق .

ياليلة حبست على نجومها فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرنى حذارك مرة فالיום حق لعينى التسهيد
ولا ييكى الرجل هذا البكاء على ما فى عيشه من الشظف إلا ومن وراء خشونته
مودة قلب تنفذ إلى القلوب .

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة .
فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهناك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخذعك
عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود .

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عيناها ؟
المرأة ولا نزاع !

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفى هذا يقول
رسول الله ﷺ : «إن الله غيور يحب الغيور ، وإن عمر غيور» .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذرهم أن تتخايل للعيون وتبرز فى مضطرب الفتون .
وكلما أوصى بوصية فيها فإنما هى الفتنة التى يتقيها ، فلما قال عليكم بالأبكار لم
يقُل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنضر ، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حباً وأقل
خباً^(١) .

ولما توجس من زواج المسلمين بينات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن
«فى نساء الأعاجم خلافة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم» .
فالخلافة هى المحذور الذى يتقى .

وهنا كثافة الدرع فأبحث هنا عن منفذ الحذر . إنك لا تبعد كثيراً حتى تلمس
الموضع الذى نم عليه الرجل حيث قال : «لو أدركت عفراء وعروة جمعت
بينهما^(٢)» .. أو نم عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال : «أحب أن يكون
الرجل فى أهله كالصبى ، فإذا احتيج إليه كان رجلاً» .

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلاً على أنها ذلك الشيء المهين .
وإن قال الغيور المحذور بلسانه أنها لشيء مهين ؟ ..

(١) الحب : الخداع .

(٢) عروة بن حزام : شاعر من الشعراء العشاق المشهورين وصاحته عفراء ، مات شهيد عتقه .

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فإنك لن تجده فى نفس هذا الرجل بته ، وإن جهدت فى البحث .

فكان ابناً باراً لا ينسى التحدث عن أبيه ، ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه فى صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاء النبى ، فأنهى وهو يقارب الكهولة .

وكان أباً يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لا يخنو على صغاره .. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبله ، فسأله المرشح للولاية : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين ! إن لى عشرة أولاد ما قبلت أحداً منهم ولا دنا أحدهم منى .. فقال له عمر : وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك .. إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه ، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة . فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برك بأبيك ؟ قال : كنت أكفيه أمره ، وكنت أعتد - إذا أردت أن أحلب لبناً - أغزر ناقة فى إبله وأسمها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه .

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفاً بصره ، محنياً ظهره ، فسأله : كيف أنت يا أباً كلاب ؟ .. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين .. ثم جاءه بلبن حلبة ابنه ففطن الرجل وقال وهو يذنى الإناء إلى فمه : لعمر الله يا أمير المؤمنين أنى لأشتم رائحة يدي كلاب من هذا الإناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به ، فوثب إليه ابنه ، وطفق الأب الذى لم يكذب يراه يضمه ويقبله .. وبكى عمر ، وأمر كلاباً أن يلزم أبويه ما بقيا ، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله .

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوهم ومحصول لعبه ، فحدث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فنفر الغلمان وثبت هو فى مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلاً : يا أمير المؤمنين ، إنما هذا ما ألفت الريح ! .. قال عمر : أرنى أنظر فإنه لا يخفى على . فنظر فى حجره ثم قال : صدقت . إلا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته ! .. فقال : يا أمير المؤمنين أترى

هؤلاء الآن ؟.. وأشار إلى الصبية الهاربين ، ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا على فانتزعوا ما معى ، فمشى معه عمر حتى بلغه بيته ا

وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتاً فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت إلينا فى بعض الروايات ، وخلاصتها أنه رضى الله عنه كان جالساً مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلاً ثم بكى ، فسأله من حضر فقال : كنا فى الجاهلية نصنع صنماً من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى ، أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حية .

فهى قصة يعثورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته وإسلامه ، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها إلى ذروتها ، وهى نفى الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها .

فالوآد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية ، ولم يشتهر بنو عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص بأسمها .

وقد ولدت حفصة قبل البعث الإسلامى بخمس سنوات فلم يدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ .. ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومها ونحوولها ؟

ما نحسبها إلا إحدى جنائيات الإغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للإغراب والإعجاب . فهى اختراعة تضعفها خلائق عمر التى لا تتبدل هذا التبدل من النقيض إلى النقيض بين جاهليته وإسلامه . وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه ، وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقي عليه . فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعاً لغرابتها ومقرباً لتصديقها ، وغير هذا الأب وهذا الأخ يطبق هذه القسوة التى لا تطاق .

إن قليلاً من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وإن قليلاً من الأخوة

من أحب أخا كما أحب عمر زيّداً أخاه ، فما سمع اسمه بعد مقتله إلا سألت عبرته ، وما هبت الصبا كما قال إلا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه في رثائه .

بل إن قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير .. وهو القائل : «لقاء الإخوان جلاء الأحزان» ، وهو القائل حرصاً على المودة وضنا بها : «إذا أصاب أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به ، فقلما يصيب ذلك» .

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة في نفس هذا الرجل المهيب الخيف فلننقب عنها في ينابيعها الخفية التي تسرى منها وترقرق في نواحيها ، ولا ننقب عنها في الصخور التي تكتنفها وتطفوا عليها وترفع أعلامها .

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ، ولا نفتر بما تبديه كأنه كل شيء تختويه .

فما هذه الصخور والأعلام التي كانت تروع الناظر من هيبة عمر ومن ملامح سيماها ؟ .. هي مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهي الحارس اليقظ الذي يحمي تلك النفس أن يتسرب إليها الوهن وأن تؤخذ على حين غرة ، من حيث يخاف عليها .

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن ، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع في سربه . وإنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وإنما يحذر من الطارق الذي لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه .

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته في أمس الأمور بقلبه وسريرة طبعه : في خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة ، فهو لا يستسلم لشهوة مأكّل وملبس ولا قنية دنيوية ، وفي خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مأتاه ، ويجفل من أن يرى لهم إبلا سمانا بين الإبل العجاف مخافة أن يسمنها لهم الناس في مراعيهم .. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين ! ..

وكان أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التي يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هي المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها ، فمن شرارها استعذ بالله ! .. ومن خيارها كن على حذر ! ..

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئاً واحداً لن تجد حولاً عنه ، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفي سبيل الحق انتصاره .
يعرض شأن المرأة فهو الغيور الخدور ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع إليه .

فمن همه كان ألا تظلم | الضعفاء | ولا تغبن لحياثها وخفرها ، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يعرف لها عذره حيث يعرف للرجل عذره في الصلة بينها وبينه . فسمع مرة أعرابية تنشد :
فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاح^(١) فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن^(٢) أجاج ولولا خشية الله فرت
فتوهم في زوجها عيباً وأرسل في طلبه فإذا هو متغير الفم ، فخيرته بين خمسمائة درهم وطلاقها ، فقبل الدراهم وطلقها .

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :
تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى إلا خليل الأعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج في غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج في الغزوات .

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذي يهمل النظافة والزينة ، لأن النساء «يجبن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكن» .

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب^(٣) قبل البناء بها يومها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب ، فأوجعه ضرباً وقال : غررت القوم .

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها مالا يضير سره إن عاق زواجها . فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله ،

(١) النقاح : الماء العذب الصافي .

(٢) الأجن : الماء المتغير الطعم واللون ، والأجاج : المالح المر .

(٣) الخاضب : الذي يخبض بالحناء أو نحوه .

فهمت أن تذبح نفسها ، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها^(١) ، فبرئت وتابت واستقامت على الهداية . فسأله : أخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها ؟.. قال : ويلك !.. أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا . «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة» .

فهي أولى عنده ببعض المحابة حين لا ضير في المحابة . وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه «ليمنع النساء إلا من الأكفاء» .

ونرى أنه قضى في الخلاف بين الزواج والزوجة بالقول الفصل في بناء الأسر وتعمير البيوت ، حيث قال لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لا يحبها : أو كل البيوت بنى على الحب ؟ فأين الرعاية والتذم ؟ .

فإنه لير بريات البيوت لم يدركه متحذقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده ، لأن الحب منوط بالأهواء التي تتغير بين آونة وأخرى ، وأما مناط الرعاية والتذم فهو الأخلاق التي قل أن يطرأ عليها تغيير .

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون ، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردت عنه امرأة بالينة الصاعدة^(٢) ، ومن ذاك أنه نهى الناس في بعض خطبه أن يزيّدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء : ماذا لك ؟ فلم يأنف أن يسألها : ولم ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿وَأَتَيْتُمُ إحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ

بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١٥﴾﴾ فرجع عن خطئه واعترف بصوابها .

فما للمرأة من حق تعطاه ، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتزاد عنه .

والذى ليس لها بحق في رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا تتعرض لعمله الذى لا تفقهه ، ولا يرجع إليها في مثله ، ولا سيما إن كان شأنًا من شئون الدولة ، ومهمة من أخص مهام الرجال ، فتشفت له امرأته في وال مقصر تسأله : فيم وجدت^(٣) عليه ؟.. فالتفت غاضبا وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟.. إنما أنت لعبة

(١) الأوداج : جمع ودج وهو عرق في العنق . (٢) الينة الصاعدة : المراد ، البينة التي تحملك عن

الإدعان والتصديق . (٣) وجدت عليه : غضبت «من الموجدة» .

يلعب بك ثم تتركين !. كلمة لا تلبس القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس في كل حين .

والذى ليس بحق للمرأة أن تعلق كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال : «... كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار . وصحت على امرأتى فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبی ﷺ ليراجعنه وإن أحداهن لتهجره اليوم حتى الليل .. فأفزعنى ...» .

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولاريب مفزعا لرسول الله أن تعلق كلمة على كلمته في بيته ، لكن طريقة محمد في تغليب الكلمة طريقة نبي يؤم متبعيه ، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتم بنبوة ، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد في كل ما سبق إليه . فمحمد إنسان عظيم ، وعمر رجل عظيم ، وهذا هو الفارق بينهما كما بيناه في مناسبة سابقة . وإنما الفارق بينهما في المناسبة التي نحن بصدها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندي في معرض القوة والنضال ، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها في معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لحت في الغرور وانطلقت في عنانه . ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه - عبد الله - لأنه عجز عن تطليق زوجه فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه في ذلك : «ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته !» .

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه . ومنه ضعف المرأة في غرورها واعتزازه بدلال الضعف على القوة ، لأنه في حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة في بعض نواحيها . فهو يرى في تكبر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها في ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين ، إذ هو ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء .

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه ، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن في عالمها يظهر لنا من رأيها هي فيه .

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ، وهى عائشة رضی الله عنها ، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه «كان إذا تكلم

أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقاً . وصاحت أم أيمن مرضعة النبي يوم أُصيب : اليوم وهى الإسلام .

وعليها نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرنا ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ فى الرجل الذى يكبر فى عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه .

جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها يخطبانهما فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : «أما أحدهما ففى ثروة واسعة من العيش ، إن تابعته تابعتك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مدره أرومته^(١) وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله» .

فقلت : «يأبى ! الأول سيد مضياغ للحرّة ، فما عست أن تلين بعد إباؤها ، وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت^(٢) وخافها أهلها فأمنت ؟ .. ساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت . وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت^(٣) . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد ! .. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريذة الحرّة العقيلة^(٤) ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه» .

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجبية فى زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأياً فى كل زمان على أن تضمه بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان . فإن زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة إغير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر «الزوج» من ناحية حتى تحسب لعمر «الرجل» من ناحية أخرى . إذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهى خليقة تعجب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه . وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتي تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين ستاتهن

(١) المدره : السيد الشريف المقدم والساد واليد ، والأرومة . الأصل .

(٢) الأثر : البطر .

(٣) أحمقت : ولدت أحمق ، وأنجبت : ولدت نجيباً .

(٤) الخريذة : العذراء فيها حياة وحفر ، والعقيلة : الكريمة .

والبحث في المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب في الكلام عن موقع كل منهن من نفسه ، وأثرها في حياته ، ومبلغ حظوتها عنده ، وسبب هذه الخطوة في رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه . فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف في هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادير مقتضبات ، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلاً عن التفرقة بين تلك السمات .

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئاً كثيراً في هذا الباب ، لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه ، فلا نخطئ إذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء جميعاً تدخل في نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر في المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه .

فأفضل ما كان يشرطه في المرأة أن تكون ولودا ودودا ، وألا تعاب بالحرق فيسرى حمقها في دماء وليدها ، إذ « لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا^(١) » كما قال .

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان في جميع خلائقه عريياً بحيث يستملح ما يستملحه كل عرى صميم ، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحظة ويروى عنه أنه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء^(٢) عيناء^(٣) ، فإن فركتها^(٤) فعلى صداقها » وأنه قال : « إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسننا » ، وهذان هما الملاحظة والحسن كما وصفا في الشعر العرى من قديم إلى حديث .

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال في الزوجات ، فقد وصف أكثرهن بالحسن البار ، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهى قرية بنت أبى أمية بن المغيرة ، فروى في مآثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما في حضرة النبي عليه السلام : ما رأيانا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن ! فقال له عليه السلام : « هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قرية ؟ » ، وهى إحدى زوجات عمر قبل إسلامه .

(١) المائق : الأحمق العبى .

(٢) صغيرة الأنف .

(٣) عيناء : حسة العين واسعتها .

(٤) فركتها : أبغضتها وتركها .

وروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها في الجاهلية عاصية ، فكرهته بعد إسلامها وسألت عمر ثم سألت النبي في تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ونوديت بعد ذلك باسم جميلة . وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع مارزقته من الفصاحة والتقوى . وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور .

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قرية وجميلة .. تزوج الأولى وطلقها قبل إسلامه ، وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامه ، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شمس المرأة غير صبور ؟.. لعله ذاك ، ولعل الذى أبقي عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضت من دلالها بالفطنة والتقوى .

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة ، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطلق البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة ، فلم يفترقا فى الحياة ولم ينشب بينهما خلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال .

وله مع إحدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر فى أبوته ، وتدل على عمر فى سورة طبعه ، وتدل على عمر فى مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير ، فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا إلى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة ، فقال له أبو بكر : خل بينه وبينها فهى حاضنته ، فرده إليها ولم يراحه بكلمة .

ولعمري إن فى هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر إنسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة ، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورةجاوزت حد العدل والإنصاف ، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شيء يرثه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد فاسمها

عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما - كما ينبىء عنهما هذان الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الإمام ! ثم اختار لها النبى هذا الاسم فقالت : يا رسول الله ! أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه ؟

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإمام ، وأن الشموس والعصيان أليق بالحرائر وإن أحبين أزواجهن وأحبوهم ، فإن كان تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مأخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبا وأحبته .

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات ، فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم «إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم» ، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة !

وليس بنا أن نحصى فتاواه وأفضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكننا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى أعمار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذاك أن ابنه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش إلى العراق ، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبى موسى الأشعرى وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به ؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه .. فسكت عبد الله وقال عبيد الله : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه ! وقال رجل فى المجلس : يا أمير المؤمنين^(١) لو جعلته قراضا ؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ ابنه نصف ربح المال .

(١) القراض : قراضه قراضا ، أى دفع إليه مالا ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا .

وإنما كان عمر يتقى محاباة الولاية لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباة بإذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به في أهله ، ويلجأ إلى التجارة لقلّة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله ، فقال عثمان : كل واطعم ، وقال على : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، وإن أيسرت قضيت . وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد في تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين ، فيسد به دينه .

مع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه . فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف في طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا^(١) إلى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها .! وشق ذلك عليه فلقي صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفئن مت قبل أن تجيء قلتّم أخذها أمير المؤمنين دعوها له . وأوخذ يوم القيامة ؟ : « لا .. ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك ، فإن مت أخذها من ميراثي » .

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعاً فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصرفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله ، وقال لابنه : « إن وفى به - أى بالدين - مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فاسأل فيه بنى عدى ، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ولا تعدهم^(٢) إلى غيرهم » . وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فأشار عليه مقترحاً أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى ، فلم يقبل عمر ، ودعا بابنه عبد الله فقال : اضمنها ! فضمها ، وفى بوعدة . فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه ، وقد بيعت لعمر دار في هذا الدين وسميت زمنا باسم دار القضاء ، لأنها بيعت في قضاء دينه .

ولأن يموت عمر مدينا موفى الدين هو أعظم الشرفين .. وأيسر من ذلك شرفاً أن يموت غنياً بغير دين .

(١) العير : الإبل التى تحمل الزاد .

(٢) أى لا تحاوزهم وتركهم لتسأل غيرهم .

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .

صحبناه في جاهليته وإسلامه ، وفي سره وعلايته ، وفي بيته وحكومته ، وفي دينه وثقافته ، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس . فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقريّة والامتياز بين الناس على اختلاف العصور ، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة : وهي إحقاق الحق وإدحاض الباطل ، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من الناس ، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يهتمى على السواء .

ورسخت في طويته خليقة المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التي لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصاً آخر غريباً عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامداً وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب : يخ بغير يخ يا عمر ! ويحك يا ابن الخطاب ؟ ماذا يقول عمر ! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى .. إلى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة «باطنه خير من ظاهره» أو كما قال فيه الصديق من الكلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير .

وكان له محبوبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله ، فكان عبد الله ابن مسعود يقول : «لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته . والله إني لأحسب العضاه^(١) قد وجدت فقد عمر» .

(١) جمع عصاة وهو شجر كبير له شوك . ووجدت ، أى : حزت عليه .

والغالب في أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم في السر والعلانية ، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين في كثير من الأحيان ، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق في عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم :

أعداك أنس المجد من كل وحشة فإنك في هذا الأنام غريب ولكنهم لا يكرهون إلا عمن خطأ أو حسد لئيم . وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية في قلب إنسان ، لأنه كان على عظم «شخصيته» مبرءاً من العنصر الشخصي ، في معاملة الأصدقاء والخصوم . وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا «العنصر الشخصي» ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام .

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئون به ويحبونه ، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقباً لهم صوالاً عليهم ، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوباً على رعوسهم ، ويتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضعيفة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة . ولهذا الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء ، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء .

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا في حياته بضربات عدله وهيبته ، والخطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحم الله ذلك المرء !.. ويشنى عليه .

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكي لاستعطاف الخطيئة إياه في سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الخطيئة !

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء «شخصية» أو خلة ترتبط بحياته الفردية . فإنما البغضاء «الوطنية» هي علة التآمر على قتله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكره فإنما هي في أصلها «بغضاء وطنية» كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وإن تطاولت الأيام .

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز «أبى لؤلؤة» من سبایا الفرس بالمدينة ،

وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاة المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين في كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه «نجار نقاش حداد».. فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ، وقال له : قد بلغني أنك تقول : «لو أردت أن أعمل رحي تطحن بالريح فعلت» وطلب إليه أن يصنع رحي على هذه الصفة ، فقال له : لكن سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالمشرق والمغرب .. ثم انصرف وهو يقول : «وسع الناس عدله غيري !» فقال عمر لسامعيه : لقد توعدني العبد آفا .. ولم يؤاخذ بهذا الوعيد ، بل كان من نيته أن يلقي المغيرة ليخفف عن مولاة .

هذا هو السبب الظاهر الذي لا يستراما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذي اتفق عليه كثيرون ، وقد روى عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون . فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذي حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه إن أخذ بفعلته .

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية ، وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، وأبو لؤلؤة فارسي شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جرى إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رءوسهم وتوعد المسلمين أجمعين .

وقد كان شاركهم في هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر بالإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار . ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة ، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت في ثلاثة أيام .. فسأله عمر : وما يدريك ؟ قال : أجده في كتاب الله التوراة . فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله : «الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟» ، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال : بل أجد صفتك وحيلتك وأنه قد فنى أجلك . ثم كرر له النذير مرتين في اليومين التاليين .

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لاشك فيها ، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذي يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى

مخافة القصاص الذى يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير .

إن مقتل عمر أخرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تختم تلك السيرة دون أن تضيف إليها .

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير .

وكان رضى الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف رداءه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء ، ودعا الله : « اللهم كبرت سننى وضعفت قوى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط . اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك » .

ومضت أسابيع فخرج يوما قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة فلم يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما فى كفته والأخرى فى خصرته ، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت الصفاقين^(١) قضى بها نخبه رحمه الله ، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة .

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها ، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه إذا دعوه ، حتى قال بعض عارفيه : إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة .. فنودى : الصلاة .. الصلاة ! فلما سمع النداء فتح عينيه إوفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! ها .. الله .. إذن » ثم قال : لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة .

ولم يهجمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف المظلومة كان قتله أم لبنى

(١) صفاق الطر وهو الخلد الباطن عد سواد البطن .

من القاتل ؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفا ثم حمد الله قائلا : «الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط . ما كانت العرب لتقتلنى» .

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم : أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فصاحوا معلنين : «لا والله . ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا» .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن يبكوا عليه . ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا آدم هو أم النقيع خرج بلونه . فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد ، فأشار عليه الطبيب أن يعهد فقال : «لو قلت غير هذا لكذبتك» .

وكان قد أنكر على الناس أن يحيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصياه : ويحكم أيها الناس ، أنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين ؟.. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى ليستقر بها القرار . ما استطاع إقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : «.. أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافا^(١) لاوزر ولا أجر إني لسعيد» .

وهو فى هذا كله لا يخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة ، ولا يخفى «إن للحياة لنصيبا من القلب وإن للموت لكربة !» ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة .

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن إلى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بانه عبد الله ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام .. ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا .. ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق .

(١) نجوت كفافا : أى ، لا لى ولا على .

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت :

كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى !

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب ابيه : «يا عبد الله بن عمر ! انظر ، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلنى ، وإن ردتنى فردنى إلى مقابر المسلمين ، فأنى أخشى أن يكون أذننا لى لمكان السلطان» .

وقال شهود دفنه : «فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ» ..
وفلرق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم ، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام .

فهرس

صفحة

٣	مقدمة
٧	عبرى
١٣	رجل ممتاز
٢٠	صفاته
٥٠	مفتاح شخصيته
٦٤	إسلامه
٨٥	عمر والدولة الإسلامية
١٠٩	عمر والحكومة العصرية
١٢٠	عمر والنبي
١٤٣	عمر والصحابة
١٦٤	ثقافة عمر
١٨٥	عمر فى بيته
٢٠٠	صورة مجملة





- ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية
- ٣٦ - الثقافة العربية
- ٣٧ - اللغة السامية
- ٣٨ - شعراء مصر وبيئاتهم
- ٣٩ - أبحاث مجتمعات في اللغة والأدب
- ٤٠ - علم
- ٤١ - خلاصة اليومية والشلور
- ٤٢ - مذمت دوى العاهات
- ٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار
- ٤٤ - الشيوعية والإنسانية
- ٤٥ - الصهيونية الطلعية

- ٤٦ - أسبوان
- ٤٧ - ٦١
- ٤٨ - عقيدة الصديق
- ٤٩ - الصديقة بنت الصديق
- ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية
- ٥١ - مجمع الأحكام
- ٥٢ - الحكم المطلق
- ٥٣ - يوميات الجزء الأول
- ٥٤ - يوميات الجزء الثاني
- ٥٥ - عالم السندود والنفوس
- ٥٦ - مع عاهل الحرية للعرب
- ٥٧ - مواقف وتجاهات في الأدب والسياسة
- ٥٨ - دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية
- ٥٩ - نراه في الأدب والفنون
- ٦٠ - حوث في اللغة والأدب
- ٦١ - خواطر في الفن والقصة
- ٦٢ - دين وحى وفلسفة
- ٦٣ - فنون وشعوب
- ٦٤ - قيم ومعايير
- ٦٥ - ديوان في الأدب والنقد
- ٦٦ - عبد القلم
- ٦٧ - رموز وحدود
- ٦٨ - ديوان يقظة الضمير
- ٦٩ - ديوان وهج الظفيرة
- ٧٠ - ديوان أشباح الأصيل
- ٧١ - ديوان وحى الأربعين
- ٧٢ - ديوان هز مذكروك
- ٧٣ - ديوان حمار مسيل
- ٧٤ - ديوان اعاصير محرقة
- ٧٥ - ديوان عراش الأعاصير
- ٧٦ - ديوان عراش وساطيف
- ٧٧ - ديوان أمجاد الليل
- ٧٨ - ديسون من ذواويس

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير تيسال محمد مسعود البحر

- ١ - زعيم أم الأنبياء
- ٢ - مطلع النور أو طالع البعثة النبوية
- ٣ - عقيدة محمد
- ٤ - صفة عبد الله
- ٥ - عقيدة الإمام علي بن أبي طالب
- ٦ - عقيدة خالد
- ٧ - حياة المسيح
- ٨ - در النورين عثمان بن عفان
- ٩ - عمرو بن العاص
- ١٠ - معاوية بن أبي سفيان
- ١١ - داعي السماء نبال بن رباح
- ١٢ - أبو العلاء الحارثي بن علي
- ١٣ - فاطمة الزهراء والفاطميون
- ١٤ - هذه الشجرة
- ١٥ - إبليس
- ١٦ - جحا الضاحك المضحك
- ١٧ - أبو نواس
- ١٨ - الإنسان في القرآن
- ١٩ - المرأة في القرآن
- ٢٠ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده
- ٢١ - سعد زعلول زعيم الثورة
- ٢٢ - روح عظيم الشهادة غالى
- ٢٣ - عبد الرحمن الكواكبي
- ٢٤ - رجعة أبي العلاء
- ٢٥ - رجال عرفتهم
- ٢٦ - سيرة
- ٢٧ - الإسلام دعوة عالمية
- ٢٨ - الإسلام في القرن العشرين
- ٢٩ - ميثاق من الإسلام
- ٣٠ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
- ٣١ - التفكير فريضة إسلامية
- ٣٢ - الفلسفة القرآنية
- ٣٣ - الديمقراطية في الإسلام

